

مقرر أدب عباسي ثاني

لطالبات الإنتساب المدفوع

الفصل الدراسي الثاني ١٤٣٨/١٤٣٩ هـ

أ/ نورة حميد الكبكي

nhkabkabi@uqu.edu.sa

أولاً : بيانات المقرر :

رمز المقرر	عدد الساعات	المتطلب السابق
٥٠٣٢٩٤	٣	أدب عباسي أول

خطة المقرر

- الحياة العامة في العصر العباسي الثاني.
- الحياة العلمية والأدبية في العصر العباسي الثاني.
- أبرز شعراء العصر العباسي الثاني ونماذج من شعرهم:

• الشريف الرضي

• أبو فراس الحمداني

• أبو الطيب المتنبي

• أبو العلاء المعري

- النثر الفني في العصر العباسي الثاني :

• تطور النثر في العصر العباسي الثاني

• المقامات

• أبرز الكتّاب :

أ- ابن العميد

ب- أبو حيان التوحيدي

ج- صاحب بن عبّاد

د- القاضي الفاضل

هـ- بديع الزمان الهمذاني

و- الحريري

أهداف المقرر :

من المتوقع في نهاية هذا المقرر :

• أن يعرف الطالب خصائص الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، وأبرز المتغيرات السياسية والأدبية والثقافية.

• أن يميّز الطالب أبرز أعلام الشعر والنثر الفني في العصر العباسي الثاني.

• أن يقف الطالب على أهم القضايا الموضوعية والفنية للأدب في العصر العباسي الثاني.

• أن يتمكن الطالب من قراءة النصوص الأدبية وتذوقها وتحليلها.

• أن يميّز الطالب أبرز موضوعات الأدب في العصر العباسي الثاني.

• أن يستطيع الطالب عقد مقارنة بين أوجه الاختلاف للأدب العربي في العصرين العباسي الأول والثاني.

• أن يزيد الطالب من ثروته اللغوية والأدبية ومخزونه الثقافي، ممّا يؤدي إلى اتساع أفقه وثقافته.

المصادر والمراجع :

- ١- معجم الأدباء، ياقوت الحموي.
- ٢- مقامات بديع الزمان الهمذاني.
- ٣- وفيات الأعيان، ابن خلكان.
- ٤- أمراء البيان، محمد كرد علي.
- ٥- الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف.
- ٦- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي.
- ٧- يتيمة الدهر، الثعالبي.
- ٨- تطور الأساليب النثرية، أنيس المقدسي.
- ٩- المقامة، شوقي ضيف.
- ١٠- نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري.
- ١١- صبح الأعشى... القلقشندي.
- ١٢- العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف.

الحياة العامة في العصر العباسي الثاني

استيلاء الترك على مقاليد الحكم :

مرّ بنا في العصر العباسي الأول كيف هيأ العباسيون لقيام دولتهم عن طريق الدعوة السريّة لإمام هاشمي يخلّص الموالي فُرْسًا وغير فرس من حكم بني أمية، محقّقًا لهم المساواة المشروعة - بحكم الإسلام - بينهم وبين العرب في جميع الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وسرعان ما أقبلت الجيوش الخراسانية مكتسحة كل ما لقيها من مقاومة للدولة الأموية حتى قضت عليها قضاءً مبرمًا. وأعلن العباسيون أنهم أصحاب الحق الشرعي والخلافة، وحقًا كانت أعلى المناصب وأكثرها في أيدي الفرس، وكان منهم أكثر الوزراء والقواد، غير أن العباسيين نكبوهم نكبات متوالية، على نحو ما هو معروف عن نكبة البرامكة ونكبة بني سهل. ونشب من جرّاء ذلك عداة شديدة بين الفرس والعرب. فالعرب يريدون استرداد مجدهم في العصر الأموي والفرس لا يكتفون بما لهم من مجد حادث في الدولة، وكأنهم يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم الساسانية القديمة ويمحقوا العرب محقًا، مما أعدّ لظهور تيار شعوبي بغيض رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقلّ عنه عنفًا ولا محاولة لهدم الإسلام والعروبة جميعًا. وفي أثناء ذلك كانت الثورات مضطربة في شرقي الدولة، وكلما خمدت ثورة اندلعت أخرى، وكان آخرها اندلاعًا ثورة باب الخُرْمي في آذربيجان التي ظلت نحو عشرين عامًا وكلفت الدولة كثيرًا من الجيوش إلى أن سَحَقَهَا المعتصم وقواده سَحَقًا.

وقد أخذ المعتصم حينئذ يفكر في عنصر جديد يعتمد عليه في حروبه سوى الفرس، فثوراتهم لا تنقطع، وأمانيتهم في إحياء مجدهم القومي لا تخمد، واستظهارهم للشعبوية والزندقة لا تهدأ فورته، وهدهاه تفكيره إلى الاعتماد على عنصر من الرقيق اشتهر لعصره بالصبر تحت ظلال الرماح، مع حذقه بالرمي يمينة ويسرة ومقبلاً ومدبراً، وهو الرقيق التركي الذي كثر توافده على بغداد والعراق، فأخذ يستكثر من شرائه وطلبه من سمرقند وفرغانة وأشروسنة إلى أن بلغت عدّته ثمانية عشر ألفًا. وكل يوم يزيد، حتى ضاقت به بغداد وشوارعها. وكان جمهور هذا الرقيق بدوًا جُفَاء فكانوا يركبون الخيل ويركضونها في الشوارع فتطأ بعض الشيوخ والأطفال والنساء، مما اضطر المعتصم أن يبني لهم مدينة سامراء شمالي بغداد، وانتقل معهم إليها، وظلت حاضرة للخلفاء حتى أواخر عهد المعتصم سنة ٢٧٦ للهجرة.

وكان ذلك تحولاً خطيراً في تاريخ الدولة العباسية، فقد كانت تعتمد كل الاعتماد على الفرس وكانوا أصحاب مدنية وحضارة أما الترك فلم يكونوا أصحاب ثقافة ولا مدينة ولا حضارة، إذ كانوا بدوياً لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة ولا الفنون ولا الآداب ولا قواعد الملك والسياسة، إنما هم سكان صحار وقفار وحرب وجلاد وبأس ومراس.

وهؤلاء البدو الموغلون في البداوة الذين لم يُعرفوا بحضارة ولا ثقافة ولا عُرفوا بزراعة ولا صناعة ولا تجارة ولا بسطان ولا بسياسة سرعان ما قبضوا على زمام الحكم، والمعتصم هو الذي هياً لهم ذلك لا يجعلهم جُند الخلافة العباسية فحسب، بل أيضاً باتخاذهم مدينة خاصة وجعلها عاصمة الدولة، فأتاح لهم الفرصة كي يُختلى بينهم في المستقبل وبين الخلفاء، فيصبحوا مسخّرين بأيديهم يصرفونهم كما يشاءون. وليس ذلك كل ما صنع فقد ولى كبيرهم "إشناس" مصر وجعل له الحق في أن يولّي عليها ولاية من قبله، فكان يُدعى له فيها على المنابر. وبذلك فتح المعتصم الباب لقواد الترك كي يمسكوا بزمام الشؤون الإدارية بجانب ما أمسكوا به من زمام الشؤون العسكرية. وخلفه ابنه الواثق فزاد الطين بلّةً إذ ولى إشناس من بابه في بغداد إلى آخر أعمال المغرب، جاعلاً له أمر كل هذه البلدان يولّي عليها من شاء بدون مراجعته، واستخلفه على السلطنة وألبسه وشاحين بجوهر. وليس ذلك فحسب ما أسبغه على الترك، فقد ولى على الجانب الشرقي للدولة من كُور دجلة حتى خراسان والسند "إيتاخ" حتى إذا توفّى إشناس سنة ٢٣٠ للهجرة منحه مرّتبته وأكثر أعماله. ولم يقف تجنّي الواثق على الخلفاء من بعده عند هذا الحد، فقد ارتكب خطأ خطيراً في حقهم بانصرافه عن اتخاذ ولي عهد بعده للخلافة، وسرعان ما استغلّ قواد الترك: إيتاخ وصاحبه وصيف وبُغا الكبير هذه الفرصة حين توفي سنة ٢٣٢ للهجرة، إذ حملوا رجال الدولة على البيعة للمتوكل، وكان ذلك نذير شوّم إذ أصبحت تولية الخلفاء فيما بعد بيد الترك، وعمّا قليل سيصبح عزلهم - كما سنرى - بأيديهم، وبذلك يتحول إليهم السلطان جميعه، ونصبح منذ خلافة المتوكل بإزاء عصر جديد هو العصر العباسي الثاني وهو عصر سيادة العنصر التركي بعد إحلاله محل الفرس وما تلاه بعد ذلك من سيادة البويهيين بعد احتلالهم لبغداد عام ٣٣٤هـ وحتى استيلاء السلاجقة على مقاليد الأمور في الخلافة العباسية عام ٤٤٧ هـ وانتهاءً باحتلال التتار عام ٦٥٦ هـ والقضاء على الخلافة العباسية في بغداد.

والعصر العباسي الطويل وإن كان ينسب إلى العباسيين إلا أن دولاً كثيرة قد نشأت أثناء هذا العصر. استقل بعضها عن الدولة العباسية استقلالاً تاماً كالدولة الأموية في الأندلس والدولة الفاطمية في المغرب ومصر، وظل بعضها الآخر يدين بالولاء الشكلي فقط للخليفة العباسي.

ولطول العصر العباسي فقد قسمه المؤرخون إلى عدة عصور، هي:

١- العصر العباسي الأول: ويبدأ من قيام الدولة عام ١٣٢ هـ وينتهي بتولي المتوكل الخلافة عام ٢٣٢ هـ.

٢- العصر العباسي الثاني: ويبدأ من تولي المتوكل عام ٢٣٢ هـ. وينتهي بسيطرة البويهيين عام ٣٣٤ هـ.

٣- العصر العباسي الثالث: ويبدأ بسيطرة البويهيين عام ٣٣٤ هـ وينتهي ببدء نفوذ السلاجقة عام ٤٤٧ هـ.

٤- العصر العباسي الرابع: ويبدأ بسيطرة السلاجقة عام ٤٤٧ هـ. وينتهي بسقوط بغداد في يد هولاكو عام ٦٥٦ هـ.

وقد تابع مؤرخو الأدب المؤرخين في هذا التقسيم، ورأى بعضهم أن يقسم العصر العباسي إلى قسمين فقط هما:

- العصر العباسي الأول (١٣٢ هـ . ٣٣٤ هـ).

- العصر العباسي الثاني (٣٣٤ هـ . ٦٥٦ هـ).

وقد مرت الدولة العباسية بعدة أدوار مثل:

الدور الأول: دور القوة المركزية، ويمتد من حكم أبي العباس السفاح، وحتى نهاية حكم المتوكل.(١٣٢-٢٤٧هـ).

الدور الثاني: دور الجندية. ويتمثل في تحول السلطة الحقيقية، إلى يد الوزراء، والقواد، ولم يكن للخليفة أي دور فاعلٍ على الساحة. ويمثل هذا الدور الأتراك الذين سيطروا على الحكم، أمثال: بغا الكبير، وبغا الشرابي ووصيف. حتى أن تولية الخليفة قد أصبح بيد هؤلاء الوزراء، والحجاب. حتى لقد قال أحد الشعراء يصف ذلك :

خليفةٌ في قفص	بين وصيفٍ وبُغا
يقول ما قال له	كما يقول الببغا

الدور الثالث: دور بني بويه (البويهيين). فقد سيطر البويهيون على بلاد فارس والري وأصبهان، والجبيل. وكانوا قد سيطروا على بغداد في خلافة المستكفي عام ثلاثمئة وأربع وثلاثين(٣٣٤هـ). وسيطروا على الخلفاء، عزلاً وتوليةً، كما فعل الأتراك.

الدور الرابع: دور السلاجقة، وهم من أجناس الترك، ومنهم توزون أحد قوادهم، وقد تأمر ضد الخليفة المتقي، وعزله.

الدور الأخير: سقوط بغداد في يد التتار، عام ست مئة وستة وخمسين(٦٥٦هـ).

وعرف هذا العصر بوجود ظاهرتين سياسيتين :

أ (غزوات الروم

حيث لم يقتصر الأمر على الثورات الداخلية بل ظهرت الغزوات الخارجية من قبل الروم الذين تعودوا أن يغيروا على دمياط بمصر وسمياط بالشام يقتلون وينهبون ثم يفرون إلى البحر.

ب (عصر الدويلات والإمارات المنفصلة عن الخلافة

فالدولة البويهية التي ظهرت في فارس والعراق كانت بداية لظهور حركات انفصالية واستقلال كل أمير بإمارته وتفتت الدولة إلى ولايات وإمارات بعضها يعترف بالخلافة في بغداد اعترافاً رسمياً والبعض الآخر ينكرها.

وقد أدى سيادة العنصر التركي في الدولة العباسية إلى فوضى عمت جميع مرافق الدولة بعد المعتصم، فقتل المتوكل على أيديهم، ثم جعلوا يتدخلون في تولية الخلفاء وعزلهم حتى أن بعض الخلفاء لم يدم حكمه عدة أشهر، ولم يحكم الخليفة ابن المعتز إلا يوماً واحداً. وارتد ذلك كله على الناس والمجتمع، فعاث الجنود الأتراك في البلاد فساداً، وكثر السلب والنهب وعدم الاستقرار والخوف على الأموال والأنفس والأعراض، ويروى أن أحد الجنود الأتراك اقتحم منزل أحد الأشراف في غياب صاحبه، وذلك للاعتداء على الحريم، فلم يستطع أحد التصدي له، وما كان من أحد الغيورين إلا أن شرع في الأذان، فسمعه الخليفة واستدعاه ليرى فيه رأياً لقدمه على هذه المخالفة، فأخبر الخليفة بأمر الجندي، واعتذر بأنه لم يجد وسيلة للوصول إلى مجلس الخليفة بسبب حجب الجنود الأتراك للناس عن الوصول إلى مجلسه فبادر الخليفة ومن حضر عنده من كبار القادة بإنقاذ هذا البيت الشريف من الأذى، وهذه الصورة تبين مدى ما وصل إليه المجتمع في هذا العصر من الانحطاط.

وأما عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فقد ألمحنا إلى عدم الاستقرار والخوف والاضطراب الذي عم المجتمع ؛ لذا تعطلت الحياة المدنية ولم يستطع الناس ممارسة أعمالهم في أمن وخافوا

على أعراضهم وأموالهم، وكان نتيجة ذلك أن عم الجوع والحرمان قطاعات كبيرة من الناس ، وكان الأثرياء يخافون على أموالهم لذا وجدنا من يُمدح فيبخل في العطاء، فيهجوه الشاعر في المقام نفسه، ويُسر الرجل بالهجاء أكثر من المدح ؛ لأنه إعلان لعدم قدرته على العطاء، وقد كثر ذلك حتى أصبح مدح الرجل وذمه في مقام واحد اتجاهًا ملحوظاً في دواوين شعراء هذا العصر ، وكان ذلك إعلاناً على تفشي الفقر والبطالة، كما امتلأت الأسواق بالمكدين.

الحياة العلمية والأدبية

على الرغم من ضعف الحياة السياسية والاجتماعية ووصولها إلى هذا المبلغ من السوء فعلى عكس ذلك كانت الحياة العلمية والأدبية مزدهرة في هذا العصر ويرجع ذلك إلى:

(١) فقد كانت الحياة العلمية زاخرة بكل فنون المعرفة وقد كانت هذه الحركة العلمية الزاهرة امتداداً لحركة علمية بدأت في العصر العباسي الأول غير أن السمة الأولى للعصر الثاني هي زوال الفارق بين الفكر العربي الخالص والفكر الأجنبي.

(٢) امتزاج الفكر العربي والأجنبي لتشكيل حركة علمية وأدبية متكاملة.

(٣) أصبحت دار الحكمة مكتبة مفتوحة لمختلف أنواع الكتب دون تمييز بين عربي وأجنبي.

(٤) كانت دكاكين الوراقين تقدم للقراء هذه الاتجاهات وتلك الأنواع.

(٥) حلقات المساجد قدمت إسهامات عظيمة في معظم فروع المعرفة.

مظاهر ازدهار الحياة العلمية والأدبية:

- (١) تزود الشعراء والكتاب من هذه الثقافات واتخذوا منها غذاءهم الفني وإبداعهم الأدبي.
- (٢) استمر اللغويون يقدمون للشعراء من الدراسات ما يمكنهم من الوقوف على جمال اللغة وأسرارها.
- (٣) أسهمت العلوم الفلسفية فى تكوين عقول الشعراء وتربية خيالهم وذوقهم.
- (٤) ازدهر النثر فى هذا العصر ازدهاراً عظيماً ومظهر ذلك بالرغم من ضعف الخطابة.

- أ- المواعظ ازدادت تطوراً على أيدي الزهاد والمتصوفة.
- ب - ظلت الدواوين تجذب كبار الأدباء ونشطت الرسائل الديوانية نشاطاً كبيراً.
- ج - كما نشطت الرسائل الإخوانية والأدبية التي لم تترك موضوعاً للشعر أن تسهم فيه.

سمات الأدب فى العصر العباسى الثانى:

أولا الشعر:

تطور الشعر فى العصر العباسى الثانى ووصل إلى درجة من الرقى والازدهار وذلك للعوامل الآتية:

- ١- انقسام الدولة العباسية إلى دويلات متنافسة متصارعة.
- ٢- تنافس الشعراء رغبة فى الحصول على عطايا الحكام.
- ٣- تعدد مراكز الثقافة {القاهرة-بغداد} وغيرهما.
- ٤- النضج العقلى والعلمى نتيجة لجهود العلماء فى العلم والترجمة.

وقد تميز الشعر فى هذا العصر بالتجديد فى الموضوعات القديمة وظهور أغراض جديدة.

الأوضاع الحضارية فى العصر العباسى الثانى:

رغم المشاكل السياسية العديدة التي شهدتها دولة الخلافة العباسية في عصرها الثاني فإن اللافت للنظر أن هذه الحقبة تُعدّ أخصب عصور التاريخ الإسلامي في عطائها الحضاري المتعدد الجوانب حيث نشطت حركة التأليف في فروع العلم المختلفة نشاطاً ملحوظاً طوال هذه الفترة وقدمت دولة الخلافة المترامية الأطراف علماء أفاضاً يعترف لهم العالم كله - حتى يومنا هذا - بالفضل والمكانة.

ففي مجال العلوم اللغوية وجدنا أعلاماً نابهين يضيق عنهم الحصر، على أننا لا نستطيع في هذا السياق أن نغفل اسم عالم يُعدُّ من أعظم علماء اللغة، لا في العصر العباسي الثاني فحسب؛ بل على امتداد العصور الإسلامية كلها، وهو أبو الفتح عثمان بن جنى الذي ولد بالموصل وتوفي ببغداد سنة ٣٩٢هـ = ١٠٠٢م. ومن بين كتبه الذائعة الشهرة الزاخرة بالقيمة في مجال اللغة كتاب الخصائص. وله أيضاً سر صناعة الإعراب، والمذكر والمؤنث، والمقصود والممدود، واللمع وغير ذلك. وقد شرح ابن جنى ديوان المتنبي وكان من المعجبين بشعره. وكان ابن جنى صاحب حس أدبي مرهف، وقد انعكس ذلك على كتاباته العلمية التي اتسم أسلوبها بالجمال الأخاذ فضلاً عن الدقة البالغة.

وفي مجال الأدب - إبداعاً وتأليفاً - شهد هذا العصر نهضة تأخذ بالألباب، فقد لمع فيه كوكبة من أعظم شعراء العربية، نذكر منهم - على سبيل المثال لا الحصر - البحثري شاعر الخليفة المتوكل المتوفى سنة ٢٨٤هـ = ٨٩٧م، وقد اشتهر بلغته الموسيقية العذبة ووصفه الرائع؛ وابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٣هـ = ٨٩٦م، وقد اشتهر بقدرته على توليد المعاني وابتكار الصور المعبرة؛ والمتنبي المتوفى سنة ٣٥٤هـ = ٩٦٥م الذي مازال يحتل مكان السبق بين شعراء العربية قديماً وحديثاً، وقد خصَّ سيف الدولة الحمداني بعيون مدائحه، كما مدح الملك البويهني عضد الدولة، وأمير مصر كافور الإخشيدي وغير هؤلاء من أعيان عصره.

وبجانب الإبداع الأدبي شعراً وثنراً تميز العصر العباسي الثاني بظهور الكثير من الموسوعات الأدبية التي تُعدّ مراجع أساسية لطلاب المعرفة في هذا المجال، ونكتفي هنا بذكر أمثلة لأبرز هذه الموسوعات، وقد لمع في هذا الجانب ابن قتيبة الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم الذي ولد بالكوفة وتثقف بها وسكن بغداد زمنًا ولكنه نسب إلى الدينور لأنه تولى قضاءها، وقد توفي ابن قتيبة في سنة ٢٧٦هـ = ٨٨٩م في خلافة المعتمد على الله، وقد خُلف لنا ابن قتيبة عددًا من الموسوعات الأدبية المهمة يأتي على رأسها كتاب عيون الأخبار، وكتاب الشعر والشعراء، ومن كتبه الأدبية المهمة أيضًا كتاب أدب الكاتب الذي يتحدث فيه عما يحتاج إليه الأديب من فنون المعرفة ليمارس صنعة الكتابة على الوجه الأمثل.

ويُعدُّ أبو الفرج الأصفهاني أبرز أصحاب الموسوعات الأدبية في هذا العصر. وقد كان ملازمًا للوزير المشهور أبي محمد حسن بن محمد المُهَلَّبِي وزير معز الدولة أحمد بن بويه، وكان المهلبى بصحبة معز الدولة عند انتقاله إلى بغداد، ومما يحفظه التاريخ للمهلبى أنه كان محبا للأدب مقرِّبًا لأهله، وكان يعرف لذوى القرائح الجيدة أقدارهم ويغدق عليهم من كرمه ورعايته، ومن هنا قرب أبا الفرج الأصفهاني ورعى مكانته. ولاشك أن موسوعة الأغاني للأصفهاني تعد من أهم الموسوعات الأدبية وأكثرها انتشارًا وشمولاً فيما يختص بتاريخ الأدب العربي والثقافة العربية حتى نحو منتصف القرن الرابع الهجري. وقد توفي أبو الفرج الأصفهاني في سنة ٣٥٦هـ = ٩٦٧م.

ويتميز أيضًا بين أصحاب الموسوعات الأدبية أبو منصور الثعالبي وهو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، ولد بنيسابور في سنة 350هـ = ٩٦١م، وتوفي في سنة ٤٢٩هـ = ١٠٣٨م، أي أنه عاش حياته كلها في فترة نفوذ البويهيين، وشهدت فترة تفتحه الأدبي خلافة الطائع لله والقادر بالله، وتوفي في خلافة القائم بأمر الله، وكان الثعالبي غزير الإنتاج متنوع الاهتمامات العلمية، ولكن يقف على رأس مؤلفاته جميعًا كتابه الموسوعي الضخم بيتمة الدهر في محاسن أهل العصر، وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها كما يقول ابن خلكان، وهو من أربعة مجلدات صرف فيها جل اهتمامه لشعراء القرن ٤هـ = ١٠م ورتبهم على أوطانهم، فقد تناول في أبواب خاصة شعراء الشام ومصر

والمغرب والموصل والبصرة وبغداد وأصفهان والجل وبارس والأهواز وجرجان، وتحدث عن الدولة السامانية وشعرائها وعن خوارزم، وتحدث أيضاً عن بني بويه وشعرائهم وكتابهم، وأسهب في الحديث عن ابن العميد والصاحب بن عباد، كما تحدث عن بلاط سيف الدولة وشعرائه وكتابه، ولاشك أن بيتمة الدهر تعد إحدى الموسوعات الأدبية الأساسية في تاريخ الأدب العربي، ولا تزال حتى يومنا هذا مصدرًا لا غنى عنه للباحثين في الحياة الأدبية في القرن ٤ هـ = ١٠م.

أبرز شعراء العصر العباسي الثاني ونماذج من شعرهم :

أبو الطيب المتنبّي

أحمد بن الحسين ٣٠٣-٣٥٤هـ

أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي (من بني جعفي من مذحج من اليمن). ولد بالكوفة سنة (٣٠٣هـ) في حي بني كندة ، فنسب إليه. وهو قدم الشام في صباه - كما نقل ابن خلكان - وجال في أقطاره ، ويبدو أن ذكاه ومطامحه سوّغا له أن (يتنبأ) على معنى من معاني التنبؤ ، في بادية السماوة طمعاً في المال أو المكانة ، فتبعه خلق من بني كلب ، وغيرهم ، فطلبه أمير حمص وقبض عليه وأودعه السجن ، إلى أن رق له لطول حبسه وكثرة استعطافه ، فاستتابه وأطلقه. ومنذ تلك الحادثة وهو يعرف بلقب المتنبّي.

خرج المتنبّي إلى جنوبي الشام ، مغادراً حمص، متنقلاً فيها ومادحاً بعض الأمراء، وأتيح له أن يتصل بأسرة بني حمدان، ولقي سيف الدولة، فتبادلا الإعجاب ، ولحق المتنبّي بحلب وحلّ من الأمير بمنزلة رفيعة لم يشاركه فيها شاعر، وعاش في كنفه حياة رعاية وعطاء.

تعرضت العلاقة بينهما لكيد بعض رجال الحاشية، ولم يجد المتنبّي من سيف الدولة الحفاظ الذي يرضي كبريائه فغادر حلب قاصداً مصر، مدح كافور الأخشيدي طمعاً في الحصول على ولاية أو إمارة، غير أن مطامحه تحطمت ولم ينل ذلك الجاه الذي كان يبذل في بلاط سيف الدولة، فعزم على الفرار بعد أن أذاع قصيدة هجاء شديدة الإيذاء، وغادر البلاد هارباً ، وقصد الكوفة وبغداد يمدح القلة القليلة.

وكانت رحلته الأخيرة إلى "فارس" طلبه ابن العميد فمدحه ، كما مدح عضد الدولة البويهى ، ونال إكرامه وعطاءه ، وعاد إلى العراق فلقبه قريباً من بغداد فاتك الأسدي ، وكان المتنبي مع غلامه وابنه ومعه مال عظيم ، فقاتل معهم حتى قتل وقتلوا ، وكان ذلك سنة (٣٥٤هـ).

يعد أبو الطيب المتنبي من أكبر شعراء العربية على امتداد عصورها ، وكثير من الدارسين يجعلونه رأس الشعراء وسابقهم. أشهر أغراضه المديح والفخر ، ولقد كان المتنبي ذا شخصية جبارة عظيمة ، وكان معتداً بنفسه : شخصه وشاعريته وذكائه ، وكان طموحاً أليماً يتمتع بصفات الفارس الشجاع. وأجود شعره ما قاله في سيف الدولة ، فهو قال بعد أن نضجت شاعريته وتمكنها.

نموذج متكامل من شعر المتنبي في مدح سيف الدولة :

وتأتي على قَدْرِ الكرامِ المكارمِ	على قَدْرِ أهل العزم تأتي العزائم
وتصغر في عين العظیم العظام	وتعظم في عين الصغير صغارها
وقد عجزت عن الجيوش الخضارم	يكلف سيف الدولة الجيش همّه
وذلك ما لا تدعيه الضراغم	ويطلب عند الناس ما عند نفسه
نسور الفلا أحداثها والقشاعم	يُفدى أتم الطير عمراً سلاحه
وقد خلقت أسيافه والقوائم	وما ضرها خلقٌ بغير مخالِب
وتعلم أي الساقين الغمامم	هل الحدث الحمراء تعرف لونها
فلما دنا منها سقتها الجماجم	سقتها الغمام الغر قبل نزوله
وموج المنايا حولها متلاطم	بناها فأعلى والقنا يقرع القنا
ومن جثت القتلى عليها تمامم	وكان بها مثل الجنون فأصبحت
على الدين بالخطى والدهر راغم	طريدة دهر ساقها فرددتها

تفيتُ الليالي كلَّ شيءٍ أخذته
وهنَّ لما يأخذن منك غوارمُ
إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً
مضى قبل أن تلقى عليه الجوارمُ

المعاني الجزئية:

الخضارم : الكثيفة اللّجبة ، الضراغم : الأسود، أحداثها والقشاعم : الكبار منها والصغار ، أي إن النسر تقديه بأنفسها فهي في غاية السرور لأنه كفيل بتوفير الطعام لها من جثث القتلى.

القوائم : مقابض السيوف ، الحدث : قلعة بناها سيف الدولة في بلاد الروم وغلب عليها فتحصن فيها الروم فأتاهم وقتلهم فتلطخت بدمائهم ، ولذلك وصفها بالحمراء ، الغمام : السحاب ، تمانم جمع تميمة وهي تعويذة يتوقون بها مسّ الجنون ، أي كان الروم فيها كالمجانين فقتلهم وعلق جثثهم على حيطانها كما تعلق التمانم.

الخطي: الرماح ، أي كانت هذه القلعة مثل الطريدة تتعقبها حوادث الدهر فرددت هذه الحوادث عنها رغم أنف الدهر.

القيم الجمالية والفنية:

١. بدأ الشاعر قصيدته دون مقدمات ، فقد جاء المطلع مُصرعاً فيه ذلك الترحيح الصوتي (العزم والعزائم، والكرام والمكارم) حيث المفرد والجمع في تكرار يفضي إلى نوع من الإيقاع الملجل.
٢. اعتمد المقابلة بالإضافة إلى الظاهرة السالفة الذكر في البيت الثاني فكان التقابل المعنوي رديف التماثل الصوتي الموحى.
٣. تستمر ظاهرة التماثل مع لون من ألوان التجانس بين الحروف في حشد مقصود لهذه الطاقة الصوتية المتفجرة (تدعيه الضراغم) و (ما ضرها).

٤. الكناية التي تقدم المعنى في خفاء وتوحي به من خصائص هذا النص حيث يشير الشاعر إلى ما يتصف سيف الدولة من شجاعة وإقدام ، ويكنى عن ذلك بسعادة الطيور التي وفر لها طعامها من الجثث.

٥. مظاهر التصنيع واضحة في تلاعبه الألفاظ وتوظيفه اللون واستخدامه للاستعارة ، وتكرار عملية السقيا بألفاظ وأشكال متعددة، قد أتى بصور شخّص فيها الجماد واستطرد إلى الحديث عنها ، وذلك عند حديثه عن (الحدث الحمراء) وهي القلعة الهامة ويبدو أنها كانت محور المعركة ، وقد استقصى في الحديث عنها العديد من الجوانب ، ومزج بين ما هو حسي وما هو معنوي ببراعة تدل على مهارته ، وقد بنى صورة كلية فيما يقرب من خمسة أبيات استغرقها في الحديث عن القلعة نوع خلالها الصور البيانية.

٦. وظف معارفه وخصوصاً في علم النحو للكناية عن عزمته القوية وأنه إذا همّ أمضى

الشريف الرضي

يا ظبيّة البانِ ترعى في خمائله	ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبدولٌ لشاربه	وليس يرويك إلا مدمعي
هبت لنا من رياح الغور رائحة	بعد الرقاد عرفناها برياك
ثمّ إنثنينا إذا ما هزنا طرب	على الرحال تعللنا بذراك
وعدّ لعينيك عندي ما وقيت به	يا فزب ما كذبت عيني عيناك
أنت النعيم لقلبي والعذاب له	فما أمرك في قلبي وأخلاك
عندي رسائل شوق لست أذكرها	لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

هذه مقطوعة غزلية يصور الشريف الرضي من خلالها مقدار ما يعاني من الشوق وما يكنه

قلبه من الحب لتلك التي يتغزل بها ، ويبثها من خلال الكلمة الرقيقة والصور المعبرة نجواه.

وليس من الضروري أن يكون الشريف الرضي متوجها بهذه الأبيات إلى امرأة بعينها ذات واقع تاريخي ، وأنه يعبر عن تجربة مر بها في حياته. وحسبه أن يكون قد عاش هذه التجربة بإحساسه ومشاعره وصورها لنا على نحو ما نجد. وأول ما يصادفنا من أوصاف هذه المرأة ما تتمتع به من الجمال ، هذا الجمال الذي لم يعبر عنه الشريف الرضي صراحة حتى لا يفقده بعضا من جماله ، ويفقدنا شيئا من المتعة النفسية التي نحس بها من خلال استعارة لفظ المرأة. ولم يشأ أن يأتي باللفظ المستعار وحده بل قوى من الزعم بأن هذه المرأة تدخل في جنس الأطباء ، وذلك بذكر أمر يتعلق بالطباء وهو الراعي في الخمائل.

والجمال الذي يتحدث عنه الشريف الرضي هو الجمال الحسي الذي غلب على كثير من أوصاف شعرائنا القدامى للمرأة. وهو يظهر على وجه الخصوص في جمال العينين. وكثيرا ما لفت جمال العينين هؤلاء الشعراء، وقد التمسوا له نظيرا وشبيها من بيئتهم الصحراوية فوجدوا هذا الجمال واضحا في أعين الأطباء.

والوصف الثاني الذي يطلقه الشاعر على هذه المرأة أنها كريمة ممتنعة، وأنها من جنس الحرائر اللاتي لم يخرجن على التقاليد المتوارثة على الرغم مما كان يزخر به العصر العباسي "عصر الشعراء" من الجواري والإماء والمغنيات. وهذا يدلنا أن الشاعر ظل محافظا على التقاليد العربية في الغزل الذي يعد من السمات الواضحة فيه تمنع المرأة وإباؤها وتدله الشاعر وصابته، وزيادة كلفه بهذه الحبيبة التي يرضى منها بأقل القليل.

وقد سلك الشريف الرضي نفس الاتجاه مما يدفع إلى القول بأن العصر العباسي ظلت فيه أصوات تتمسك بالتقاليد المتوارثة الاجتماعية والفنية ، ولم يستطع التيار المجدد الذي حمل بشدة على هذه التقاليد أن يمحوها ويعفي على آثارها.

أما الصفة الثالثة التي يعبر عنها الشاعر فتتمثل في إحساسه بأن المرأة تبادلته العاطفة، وأنها تحمل له المودة ما يحمل لها. وذلك ما تكشف عنه هذه المقطوعة من خلال تلك الوعود التي يقرأها في عينيها، والشوق الشديد الذي يعاني منه. والرقيب الذي يمنعها ويحول بينه وبين بثها ما يكابد من الشوق.

أبو فراس الحمداني ٣٢٠ - ٣٥٧ هـ

هو أبو الحارث بن أبي علاء ابن عم سيف الدولة ولد بمنبج وربي في حجر النعيم بين أبهة الملك وعزة السلطان فنشا على خلال العظماء شجاعا أبي النفس سليم الطبع كريم الخلق جامعا بين أدبي السيف والقلم .

وكان سيف الدولة معجبا بمحاسنه مؤثرا له عل سائر قومه، فاصطنعه لنفسه واصطحبه في غزواته، واستخلفه في أعماله؛ فكان الدرة الفريدة في تاج سيف الدولة، يقود جيوشه في الحرب، ويرأس كتابه في السلم، وكان النصر حليفه في كل مواقعه، فمالت إليه القلوب ولهجت بذكره الألسن وانطلق لسانه برائع الشعر في الفخر والحماسة ووصف الحروب، حتى خانه الفوز فأسره الروم في بعض المواقع وهو جريح قد أصابه سهم بقى نصله في فخذ، فسجنوه بخرشنة، ثم نقلوه إلى القسطنطينية. وتعذرت المفاداة فلبث في الأسر أربع سنين ظهرت فيها أشعاره الروميات ملأى بعواطف الحب والحنين إلى أهله وأحبابه، ممثلة ما يكن صدره من لواعج الشوق لأمه العجوز وابنته الوحيدة، وعوامل الحب لسيف الدولة. ولم يزل أبو فراس يعالج مرارة الأسر وحرارة الشوق حتى تنوظر في الهدنة والأسرى فأطلقه الروم بعد أن أكرموه وبجلوه.

صفاته وأخلاقه :

كان أبو فراس كما قدمنا بطلاً أيباً سخياً معجباً بشعره ، وبنفسه ، كثير الفخر بأصله وقومه ، عزوفاً عن الشراب والمجون ، فبرئ شعره من كل ذلك وانطبعت أخلاقه وهو القائل :

ومزمار وطنبور وعود

لئن خلق الأنام لحسو كأس

لمجد أو لبأس أو لوجود

فلم يخلق بنو حمدان إلا

شعره :

شعر أبي فراس على مثال الشعر القديم متانة وأسلوباً، إلا أن عليه رواء الطبع وسمّة الطرف، وعزة الملك، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتز. وكان صاحب بن عباد يقول " بُدئ الشعر بملك وختم بملك " يعني امرؤ القيس وأبا فراس. وقد تصرف هذا الشاعر في أغلب فنون الشعر فأجاد، إلا أن منزلته في الفخر والاستعطاف والعتاب أعلى، وروميته أجل وأدل على فضله ، فإن مثله لا يزكو به أن يمدح اميراً، أو يهجو صغيراً، أو يذل مصون شعره بين الشراب والمجون.

وقد علمنا كيف نشأ وأين درج. وله غزل رقيق تتضاءل فيه عزة الملك أمام سلطان الحب ، فيكون أنم جلالاً وأشد روعة. وزعم الثعالبي أن المتنبّي كان يشهد له بالتبرير ويتجافى جانبه " فلا ينبري لمباراته و لا يجتري على مجاراته ، إنما لم يمدحه ومدح غيره آل حمدان تهيئاً له وإجلالاً لا إغفالاً " وهو زعم لا يطمئن عليه القلب ، ولا يقول به عرف المتنبّي.

أنموذج من شعره:

قال وقد سمع حمامة تنوح على شجرة بالقرب من سجنه بالقسطنطينية:

أَقُولُ وَقَدْ نَاحَتْ بِقُرْبِي حَمَامَةٌ أَيَا جَارَتَا، هَلْ تَشْعُرِينَ بِحَالِي
مَعَاذَ الْهَوَىٰ! مَا دُقْتُ طَارِقَةَ النَّوَى وَلَا خَطَرْتُ مِنْكَ الْهُمُومُ بِبَالِي
أَتَحْمِلُ مَحْزُونٍ الْفُؤَادِ قَوَادِمَ عَلَى غُصْنِ نَائِي الْمَسَافَةِ عَالِي
أَيَا جَارَتَا، مَا أَنْصَفَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا تَعَالِي أَقَاسِمِكَ الْهُمُومَ، تَعَالِي
تَعَالِي تَرَى رُوحًا لَدَيَّ ضَعِيفَةً تَرَدُّدُ فِي جِسْمٍ يُعَذِّبُ بِأَلِي
أَيْضَحُكَ مَأْسُورًا، وَتَبْكِي طَلِيقَةً وَيَسْكُتُ مَحْزُونًا، وَيَنْدُبُ سَالِي
لَقَدْ كُنْتُ أَوْلَىٰ مِنْكَ بِالْدَمْعِ مُقَلَّةً وَلَكِنَّ دَمْعِي فِي الْحَوَادِثِ غَالِي

أبو العلاء المعري ٣٦٣ - ٤٤٩ هـ

نشأته وحياته :

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التتوخي نسبة إلى تتوخ إحدى قبائل اليمن. وُلِدَ هذا الفيلسوف الحكيم بالمعرة من أبوين شريفين. فقد كان أبوه من أفاضل العلماء وجده قاضياً بالمعرة. فلما بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجذري فذهب بيسرى عينيه وابيضت اليمنى؛ فنشأ ضريباً لا يعرف من الألوان إلا الحمرة لأنهم ألبسوه ثوباً معصفراً وهو مريض فكان هذا اللون آخر ما عرفه وآخر ما رأى ولما أدرك سن التعليم أخذ أبوه يلقنه علوم اللسان العربي فتعلمها. وتتلذذ بعد ذلك لنفر

من علماء بلده فضم إلى صدره ما حوته صدورهم. ولم يُرَ بعد ذلك -فيمن حوله- مَنْ سبقه إلى العلم، أو اختص دونه بفهم، فانثنى إلى بيته وقد ناهز العشرين حتى تفوق في ذلك وبلغ ما لم يبلغه أحد. وفي سنة ٣٩٢هـ غادر المعرة إلى بلاد الشام فزار مكتبة طرابلس، وعاج باللاذقية، وكان بها دير للربان فنزل به وأقام بين أهله حتى درس العهدين القديم والجديد. وبعد أن طوّف بلاد الشام عزم الرحلة إلى بغداد مبعث العلم ومستقر العلماء ليدرس الحكمة اليونانية والفلسفة الهندية. وما أن أحسَّ بمقدمه البغداديون حتى تقاطروا للقائه ظمًا إلى أدبه. فأقام بينهم يأخذون عنه العلم والآداب، ويبحث هو في علوم الفلسفة حتى أحرز منها شوطاً بعيداً. ووجد أبو العلاء المعري بيئةً صالحة وأرضاً زكية لبحث المسائل وغرس المبادئ. فأخذت آراؤه تظهر وتذيع واتصلت أسبابه هناك بجماعة من الفلاسفة الأحرار كانوا يجتمعون كل جمعة في دار أبي أحمد عبد السلام بن الحسن البصري، فأثر ذلك في عقله وأدبه.

وما كادت علاقته تتوثق بالبغداديين حتى فوجئ على بعد المزار بمن ينعى أمه، وكان أبوه قد توفى قبلها، فوجدَ عليها وجداً شديداً، ونالت منه هذه النازلة. وكان الأمراء والدمماء قد أخذوا يرتابون في عقيدته ويشكون في أمره، فاضطربت حياته، واختلقت أطواره وأعوزه المشفق والنصير. فنظر إلى العالم بمنظار أسود، وقرّر في نفسه العزلة والخروج عن الدنيا وعاد إلى المعرة سنة ٤٠٠هـ فاعتزل عن الناس إلا عن تلاميذه.

وسمّى نفسه "رهين المحبسين": العمى والمنزل. وظل عاكفاً على التعليم والتأليف عازفاً عن ملذات الحياة لا يأكل الحيوان ولا ما ينتج منه، قانعاً من الطعام والحلوى بالعدس والتين، ومن المال بثلاثين ديناراً موقوفة عليه في كل عام، راضياً من اللباس والفرش بغليظ القطن وحصير البردى. وحرّم على نفسه الزواج ضمناً بنسله عن لؤم الناس ويؤس الحياة. ولم تنزل تلك حاله حتى وافته المنية سنة ٤٤٩هـ، وقد أوصى أن يُكتب على قبره هذا البيت:

ولما مات وقف على قبره زهاء ثمانين ومائة شاعر فيهم الفقهاء والمحدثون والمتصوفون.

مواهبه وعقيدته:

كان أبو العلاء إنسيّ الولادة وحشيّ الغريزة كما وصف نفسه، رقيق القلب، سخيّاً وفيّاً، قامعاً لشهوته، سيء الظن بالناس، شديد الحذر منهم، قويّ الذاكرة، سريع الحفظ، وقد رووا عنه في ذلك الأعاجيب، فزعموا أنه كان يحفظ ما يُفهم وما لا يُفهم، وقد قال الشعر لإحدى عشرة سنة، ولم يمنعه ذهاب بصره من إجادة التشبيه ومشاركة المبصرين في ألعابهم، فقد كان يجيد لعب النرد والشطرنج ويدخل في كل باب من أبواب الهزل والجد.

وقد اختلف الناس في عقيدته، فمنهم من قال أنه مُجد يرى رأي البراهمة. وغيرهم يقول: إنّ شعره ككلام الصوفية له باطن وظاهر. وبعضهم يقول: إنّ هذه الأشعار الضالّة مدسوسة عليه من أعدائه. وأكثر الناس يرحّب أنّه كان شاكّاً، فتارةً يُثبت وأخرى ينفي، ولذلك كثر التناقض في شعره.

شعره:

ينقسم شعر أبي العلاء إلى قسمين: شعر الشباب ويجمعه ديوان "سقط الزند"، وشعر الكهولة وقد وعاه ديوان "اللزوميات". فأما شعره في الشبيبة: فكثير المبالغة، واضح التقليد بيّن التكلف، قلّد فيه المتنبي واستمد منه أكثر معانيه، واستخفّ بقواعد اللغة وجارى شعراء عصره في البديع، بيّد أنّه استعمل الغريب وأكثر في شعره من اصطلاحات العلوم، قال في أكثر أغراض الشعر إلا في الخمر والمجون والصيد والهزاء، وقد سلّم له في هذا الطور جملة من القصائد المختارة في الرثاء والمدح والفخر. وأمّا شعره في الكهولة: فقليل المبالغة والتكلف، قد عارض فيه

المتقدمين من العرب، فأثر اللفظ الجزل والأسلوب البدوي، وركب القوافي الصعبة والتزم ما لا يلزم، وتشدد في اتباع القياس، وأكثر من البديع والجناس، وأودع شعره في هذا الطور فلسفته وآراءه. ولكنّه حشاه بالألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة كأنّما خاف شر الناس على تلك الثمرات الفكرية فحاطها بأشواك من الكلمات حتى لا يمتد إليها بنانٌ ولا يتذوقها لسان. وقد ابتدع في شعره مناجاة الحيوان كمحاورة الديك والحمامة، ومناظرة الذئب والشاة: وهو أحكم الناس بعد أبي الطيب. ويختصّ دونه بالخيال الدقيق: وتصريف القول في الفلسفة والاجتماع وأخلاق البشر وأنظمة الحكومات والقوانين والأديان وهو واحد الشعراء في هذا السبيل.

نثره:

نثر أبي العلاء المعري كشعره، يختلف في كهولته عنه في شببته فقد كان كثير المبالغة ومفعماً بالغريب، متكلف السجع، كثير الاصطلاحات العلمية، ثم حكّم فلسفته في نثره فقلّت المبالغة، وفاضت الجمل بالمعاني. ولم تخلُ كتابته من غموض يُعني القارئ وتطويل يُملّه، فربما كتب الرسالة إلى أصدقائه فيمعن فيها ويستطرد حتى تكون كتاباً ضخماً غريب المسائل كثير الفوائد.

مؤلفاته:

أكثر مؤلفاته ذهب بها ربح الحروب الصليبية فلم يبق إلا "سقط الزند"، و"رسالة الغفران": وهي شديدة الشبه بالملهاة الإلهية لدانتى، والفردوس المفقود لملتن؛ لأنّه تخيل رجلاً صعد إلى السماء ووصف ما شاهده هناك، وانتقد فيها الشعراء والرواة والنحاة بأسلوب روائي بديع. ومن مؤلفاته: عَبَثُ الوليد وهو شرح ديوان البحترى وقد طُبِعَ في دمشق. وقد فُقد كتاب الأيِّك والغصون في مائة مجلد، وهو دائرة معارف في العلم والأدب. و"معجز أحمد": وهو شرح ديوان المتنبي. و"ذكرى حبيب": وهو شرح ديوان أبي تمام. وغير ذلك كثير.

أنموذج من شعره: من قصيدة له في الرثاء:

صاح ! هذي قبورنا تملأ الرخ
خفف الوطء ما أظن أديم الـ
وقبيح بنا وإن بعد العهد
د هوان الآباء والأجداد
سز إن اسطعت في الهواء رويداً
لا اختيلاً على رفات العباد
رُبّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً
ضاحكاً من تزامم الأضداد
فاسأل الفرقدين عمّن أحسا
من قبيلٍ وأنساً من بلاد
كم أقاما على زوالٍ نهارٍ
وأنارا لمُدلجٍ في سوادٍ

النثر الفني في العصر العباسي الثاني

(تطوره)

تطور النثر العربي في هذا العصر تطوراً خطيراً، فقد حملت أوانيه الثقافات الأجنبية المختلفة من يونانية وفارسية وهندية وسريانية حملاً لا يزال يروع الباحثين، وكأنما كان في اللغة العربية طاقات مسنكة لكي تحمل في يسر هذه الثقافات ولا تتأبى عليها، واشتهر كثيرون بالنهوض بهذا العمل وفي مقدمتهم ابن المقفع. ثم رعت الدولة الترجمة، وأنفقت عليها إنفاقات هائلة، بحيث كاد أن لا يبقى كتاب نفيس في الثقافات المذكورة إلا نُقل إلى العربية وبحيث يمكن أن يسمّى العصر العباسي الأول عصر النقل والترجمة. وظلت من ذلك بقايا إلى هذا العصر، وتحول المترجمون فيه يعيدون النظر في كثير مما تُرجم في العصر الماضي، وأحس المترجمون في العصر العباسي الثاني عندهم غير قليل من الانحراف في التعبير، وتنبهوا إلى أن ذلك جاءهم من الترجمة الحرفية،

فأخذوا يعيدون ترجمة كثير مما نقلوه. وكان هذا كَسْبًا للنثر العربي فإن الضَّيْم الذي كان يداخل الترجمات أخذ يزيلها.

(أبرز الكتاب)

ابن العميد : حياته وثقافته

هو، أبو الفضل محمد بن الحسين، وهو فارسي من مدينة قم ١، وقد نشأ في بيت أدب وكتابة، إذ كان أبوه كاتبًا لما كان بين كافي، ولما قتله السامانيون في بعض مواقعهم معه، أخذوا كاتبه أبا عبد الله الحسين بن محمد، المعروف بكلة، والد صاحب الترجمة أسيرًا معهم، ثم أفرجوا عنه وأكرموه، ورتبوه في الدار السلطانية، وسرعان ما تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر، ولقب الشيخ كالعادة فيمن يلي ذلك الديوان كما لقب بالعميد، ويقول أبو إسحاق الصابي في كتابه التاجي: إن رسائل العميد لا تقصر في البلاغة عن رسائل ابنه أبي الفضل ابن العميد ١، ويظهر أن العميد لم يأخذ ابنه معه إلى بلاط السامانيين، بل تركه في رحال البويهيين، ويقول صاحب اليتيمة: " ولم يزل أبو الفضل في حياة أبيه، وبعد وفاته بالري وكور الجبل، وفارس يتدرج إلى المعالي، ويزداد على الأيام فضلًا، وبراعة حتى بلغ ما بلغ، واستقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل"، وكان تقلده هذه الوزارة عام ٣٢٨ هـ، وظل يتقلدها إلى وفاته عام ٣٦٠ هـ.

ولسنا نعرف شيئًا ذا قيمة عن أساتذة ابن العميد سوى ما عرفناه عن أبيه، ثم ما ذكره صاحب الفهرست، عن أستاذ له يسمى محمد بن علي بن سعيد المعروف باسم سمكة ٣، وقد سماه صاحب اليتيمة ابن سمكة ٤، ويقول صاحب الفهرست: إن له كتابًا في أخبار العباسيين ٥، على كل حال ليس بين أيدينا ما يدل دلالة واضحة على المنابع الثقافية، التي نهل منها ابن العميد، غير أننا

لا نتابعه في آثاره، وفي حياته أثناء وزارته حتى نجده يلم بجميع ضروب الثقافة لعصره، ولعله من أجل ذلك سمي باسم الجاحظ الثاني، وألمع مسكويه قيم دار كتبه في كتابه "تجارب الأمم" إلى ثقافته فقال:

إنه "أكتب أهل عصره وأجمعهم لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب، وتوسعا في النحو والعروض، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام، فأما القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار، فكان منه في أرفع درجة وأعلى رتبة"، ويقول مسكويه أما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعها بحضرتة إلا أن يكون مستقيداً أو قاصداً قصد التعلم".

ويروي مسكويه أن أبا الحسن العامري الفيلسوف النيسابوري قصد إليه ، وقرأ عليه عدة كتب مستعلقة من كتب الفلاسفة ، وليس هذا كل ما ذكره مسكويه عن ثقافة ابن العميد ، بل إنه يقول أيضا " كان ابن العميد يختص بغرائب من العلوم الغامضة التي لا يدعيها أحد كعلوم الحيل " الميكانيكا " التي يحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، والحركات الغريبة ، وجر الثقيل ، ومعرفة مركز الأثقال ، وإخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل".

وهذا كله يؤكد ان ابن العميد اتاح لنفسه ثقافة واسعة. وكما عمل على تثقيف نفسه عمل أيضا كل ما يستطيع في خدمة ركن الدولة ثم ابنه عضد الدولة ، كان يقود الجيوش بنفسه، واستطاع بمقدرته أن ينشر نفوذ عضد الدولة على بغداد والعراق. وقد خرج في أواخر حياته على رأس جيش لقتال الزعيم الكردي حسنويه ، ولكنه توفي في الطريق في صفر عام ٣٦٠هـ وقد نيف عمره على ستين عامًا.

وهذا الوزير المثقف ثقافة واسعة يعد أستاذ عصره في التصنيع ، وقد أقر له ببراعته وفصاحته وامتيازته في كتابته كل من تصدوا لترجمته ، يقول صاحب اليتيمة " هو عين المشرق ولسان الجبل ، وعماد ملك آل بويه ، وصدر وزرائهم ، وأوجد العصر في الكتابة، وجميع أدوات الرياسة، وآلات الوزارة، والضارب في الآداب بالسهام الفائزة، والأخذ من العلوم بالأطراف القوية، يدعى الجاحظ الأخير، والأستاذ، والرئيس، يضرب به المثل في البلاغة، وينتهي إليه في الإشارة بالفصاحة والبراعة، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها، إلى براعة المعاني ونفاستها. وما أحسن وأصدق ما قال له صاحب - وقد سأله عن بغداد عند منصرفه عنها - بغداد في البلاد، كالأستاذ في العباد. وكان يقال: بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد ". وفي هذه الفقرة ما يدل دلالة واضحة على مدى ما وصل إليه ابن العميد في عصره من مكانة أدبية ممتازة، وهي مكانة لم يأخذها عن طريق مركزه السياسي وإنما أخذها عن طريق فنه الخالص إن كان ينحو نحوًا بديعياً من التصنيع والزخرف في كتابه ، وقد مر بنا في غير هذا الموضع أن الكتاب اصطلاحاً منذ عصر المقتدر على أن يعملوا السجع في كل ما يكتبون واستمر ذلك من بعدهم، وكان ابن العميد يسجع في كتابته ولكن ليس هذا ما يلفتنا عنده ، وإنما الذي يلفتنا حقا هو أن مذهب التصنيع تماثل على يديه في الصورة التي كانت تنتظره منذ القرن الثاني ، ونقصد صورة السجع من جهة والاحتكام إلى البديع فيما ينشئ الكاتب من جهة أخرى ؛ ومن أجل ذلك قلنا : إن ابن العميد هو أستاذ مذهب التصنيع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، لأنه أول كاتب . فيما نعرف . احتكم إلى السجع في كتابته، كما احتكم إلى البديع من جناس وطباق وتصوير، وقد هيأه لذلك أنه كان ذا عين تصويرية " يقول مسكويه : لقد رأيته يتناول في مجلسه الذي يخلو فيه بثقاته وأهل أنسته التفاحة وما يجري مجراها ، فيبعث بها ساعة ثم الذي يدرجها ، وعليها صورة وجه ، وقد خطها بظفره ، لو تعمد لها غيره بالآلات المعدة ، وفي الأيام الكثيرة ما استوفى دقائقها ، ولا يأتي له مثلها ". ولا شك في أن هذه النزعة التصويرية فيه كان لها أثر مهم في نثره ، وإذ جعلته نثرا مصورا يهتم صاحبه يصنع الصور والرسوم في كتاباته ، كما جعلته يهتم صاحبه يصنع الصور والرسوم في كتاباته ، كما جعلته يهتم بألوان البديع الأخرى من طباق وجناس وغيرهما وكأنه كان يحس بان هذه الألوان الحسية من لون لوحة الرسام. وانظر إليه يكتب إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة فيسهل رسالته على هذا النمط:

" كتابي وأنا متأرجح بين طمع فيك وإقبال عليك وإعراض عنك فإنك تدل بسابق حرمة وتمت بسالف خدمه أيسرهما يوجب حقا ورعايه ويقتضي محافظه وعناية ثم تشفعها بحديث غُلُول ٢ وخيانة وتتبعها بأنف خلاف ومعصية وأدنى ذلك يحبط أعمالك ويمحق ميرعى لك. لا جرم أني وقفت بين ميل إليك وميل عليك أقدم رجلا لصدك ، وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصطفاك واجتياحك ، وأنثى ثانية لاستقبالك واصطلاحك ، وأتوقف عن امثال بعض المأمور فيك ، ضناً بالنعمة عندك ومنافسة في الصنيعة لديك وتأميلا ، وأثني ثانية لا لفينتك وانصرافك، ورجاء لمراجعتك وانعطافك، فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويعزب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويصاغ الرأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو، وكل ضيقة الى رخاء، وكل غمرة فإلى انجلاء. وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم تحتسبه أولياؤك، فلا بدع أن تأتي من إحسانك. بما لا ترتقبه أعداؤك، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت، واخترت ما اخترت. فلا عجب ان تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت، وسوء ما آثرت. وسأقيم على رسمي في الإبقاء والمماثلة ما صلح، وعلى الاستيناء والمطاولمة ما أمكن طمعا في إنباتك، وتحكيما لحسن الظن بك، فلست أعدم فيما أظاهاه من أعدار، وأرادفه من إنذار، احتجاجا عليك واستدراجا لك، فإن يشأ الله يرشدك، ويأخذ بك إلى حظك ويسددك".

والرسالة كلها تمضي على هذا النحو من السجع والعناية بالبديع، فكلها تحف من السجع وطرف من الجناس والطباق والتصوير، فهي وشي خالص، هي بديع وتطريز وترصيع، إذ ما يزال ابن العميد يدمج وشي السجع في وشي البديع من التصوير، والطباق والجناس، فإذا أساليبه وكأنها ثروة زخرافية هائلة، وهل هناك عبارة في هذه القطعة لم تحل بلون من ألوان البديع، وهو يضع هذه الألوان الرائعة على ألفاظه المسجعة، فإذا هي تختال في هذه المقدره البديعة من الزخرف والتصنيع، وأكبر الظن أن ابن العميد قد تأثر في صناعته بصناعة السجاد في إقليمه، فهو يعاني في كل لفظة ما يعانيه صانع السجاد في كل خيط، ثم هو بعد ذلك يعني بالوشي الذي تعبر عنه ألفاظه، كما يعني صانع السجاد بالوشي الذي تعبر عنه خيوطه، وعلى هذا النمط تحولت صناعة الكتابة عند ابن العميد إلى تطريز خالص، وهو يحتال على هذا التطريز بحيل كثيرة، ولم لا؟ ألم يتعلم فن

الحيل؟ وإذا فلماذا لا يشفع فنه بكل ما يمكنه من حيل، وقد استطاع أن يصل عن هذه الحيل إلى بدع طريف في سجعه، وذلك أنه كان يعمد إلى تقصير عباراته، وهذا التقصير، أو هذا القصر من أهم الفروق بين سجعه وسجع أصحاب الدواوين من قبله، وقد نظر فرأى نفسه يضطر في أحوال كثيرة إلى عبارات طويلة، فكيف يوفق بين رغبته في القصر، وبين طول هذه العبارات؟ لقد فكر طويلاً في هذه الصعوبة، وسرعان ما هداه تفكيره إلى حيلة طريفة: هي أن يوازن بين كل لفظة، وقرينتها في العبارتين والمتجاورتين، وبذلك يرفع ما قد يحسه القارئ، أو السامع من بعد الزمن في موسيقى الجملتين، وكأنني بآبن العميد كان يعرف معرفة دقيقة أنه كلما طال الزمن الذي تنتظره الأذن في سماع العبارات المسجوعة نقص التلاؤم الموسيقي. وهو لذلك يعمد كما ترى في أول القطعة إلى السجع القصير، الذي لا يأخذ من قارئه زمناً طويلاً، ولكن استمر في القراءة تراه يضطر إلى الطول في عباراته، فماذا يصنع إزاء هذا الطول الذي يثقل على أذن سامعه؟ لقد وصل إلى حيلة طريفة من الموازنة بين العبارتين المتجاورتين موازنة تجعل ألفاظهما، وكأنها جميعاً قد نغمت وسجعت على نحو ما نرى في مثل قوله: "فإنك تدلي بسابق حرمة، وتمت بسالفه خدمة"، وقوله: "وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك، وأنتى ثانية لاستبفائك، واستصلاحك"، وما من ريب في أنها حيلة لطيفة تلك التي احتال بها ابن العميد على مثل هذه العبارات، فإذا هي تصبح وكأنها قصيرة لما تكامل فيها من حلاوة الموسيقى، وما تلك الحلاوة إلا ما يتخذ من المعادلة بين ألفاظ عباراته، معادلات تجعل فيها هذا الائتلاف الموسيقي الطريف، فكل كلمة تتعادل مع قرينة لها في الكلمة الأخرى، وكأنما تطلبها لتعزف معها هذا العزف البديع الذي تمتاز به موسيقى ابن العميد، ولعل في هذا ما يشهد بأن ابن العميد كان يصنع في سجعه إلى أقصى حدود التصنيع التي يستطيعها، وهو يحتال على ذلك بوشي البديع من جهة، كما يحتال عليه بقصر الزمن في سجعه من جهة أخرى، فإن طال زمن العبارتين المسجوعتين قصره بهذه الحيلة من أحداث المعادلات، والموازنات بين ألفاظ العبارتين، حتى لا تخرج الأذن من ألفاظ العبارة الأولى، إلا وتحس براحة صوتية إزاء كل كلمة من كلمات العبارة الثانية؛ لأنها تماثل قرينة لها في العبارة السابقة من الوجهة الصوتية تمام التماثل.

وهذه هي صورة التصنيع في الكتابة الديوانية عند ابن العميد، فهو يعمد إلى زخرف البديع يوشي به لفظه، وهو دائماً -كما تصوره يتيمة الثعالبي- يتخذ لفظاً مرصعاً بالسجع، وإنه ليحتال في تحسين سجعه، والإكثار من وشي بديعه حياً مختلفة، أما سجعه فكان يحتال عليه بالقصر، فإن كان طويلاً قصره بما مرن عليه من المعادلة بين ألفاظه، حتى وكأنها تتشابك تشابك توقعات الراقصين، وأما بديعه فإنه كان يكثر منه، وكان ما يزال يحتال على اللفظة حتى يحملها وشي الطباق من جهة، ووشي التصوير، أو الجناس من جهة أخرى.

من أجل هذه الحيل كلها، وما اقترن بها من مهارة، وتقنن كان ابن العميد زعيم مذهب التصنيع في عصره غير مدافع، ولا منازع، ومع ذلك فسقف عند الصاحب بن عباد تلميذه، وخريجه لنرى هل استطاع أن يضيف من جديد إلى تصنيع أستاذه.

(الصَّاحِبُ بنُ عَبَّادِ)

ويمثّل :

" مدرسة الصنّاعة اللفظيّة - التّصنّيع "

هو كافي الكفاة إسماعيل بن عباد، ولد في إصطخر، وقيل في الطالقان بين قزوين وأبهر سنة ٣٢٤ أو ٣٢٦هـ، وكان أبوه كاتب ركن الدولة، وعضد الدولة البويهيين، وتوفي في السنة التي توفي فيها ابنه.

وابن عباد هو الوزير الثاني الذي لمع اسمه في بلاط البويهيين، وقد درس على أبيه، وأخذ عنه مذهب الديني والسياسي، وأخذ الأدب عن أحمد بن فارس اللغوي المعروف، وأكمل دراسته ببغداد، ولما عاد إلى وطنه في الري خدم في دواوين أبي الفضل بن العميد، ويظهر أنه أعجب به

فقرّبه منه، وما لبث أن اختاره ليكون مريباً لمؤيد الدولة، أخي عضد الدولة، وكانت إقامة مؤيد الدولة بأصبهان، فأقام معه فيها، ولقب بالصاحب لصحبته له صغيراً.

ولما تقلد شؤون الدولة بعد أخيه عضد الدولة، اتخذ الصاحب وزيراً له، واستمر على وزارته حتى توفي، فوزر من بعده لأخيه فخر الدولة، وظل في الوزارة حتى وافته منيته عام ٣٨٥ هـ، وقد قضى في الوزارة نحو ثمانية عشر عاماً، ويقال: إنَّ أباه ألف كتاباً نصر فيه الاعتزال، وكان محدثاً روى عنه ابنه وغيره، ويظهر أنَّ ابن عبّاد ورث هذه الجوانب في أبيه، فقد نشأ على الاعتزال ومحبة العلم، ويقال: إنه خرج يوماً -وهو وزير- متطّلاً متحنّكاً بزبي أهل العلم لرواية الحديث وإملائه على الناس، وكما كان يولع بالحديث كان يولع باللغة، وقد ألف فيها كتاب " المحيط " في سبع مجلدات، وأيضاً رسالة صغيرة في الكشف عن مساوئ المتنبّي.

وما من ريب في أنه لو لم يشغل بالوزارة، ولا الكتابة لكان عالماً ممتازاً من علماء عصره، ولعله من أجل ذلك كان يشجع على التأليف، كما كان يشجّع على الشعر، وكان يعجب بالكتابة الرفيعة، ومدّحه مُكاتبَةُ الشريف الرضي، ويقول عنه أبو إسحاق الصابي: "احتفّ به من نجوم الأرض، وأفراد العصر وأبناء الفضل، وفرسان الشعر من يرى عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي، وملك رقّ المعاني"، وحدث ابن بابك، قال: "سمعت الصاحب يقول: مدحت بمائة ألف قصيدة شعر، عربية وفارسية، وقد أنفقت أموالي على الشعراء والأدباء، والزوار والقصاد"٦. وكان ينافسه في هذه الحركة -على ما يظهر- سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهّي، الذي فتح الثعالبي في يتيّمته فصلاً لمداحه من الشعراء، وقد أنشأ داراً للعلم في الكرخ ببغداد، كل ذلك منافسة لإسماعيل بن عباد١، ويقول ابن خلكان عن تلقيه بلقب الصاحب: وهو "أول من لقب بذلك اللقب من الوزراء؛ لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد، وذكر الصابي في كتاب التاجي أنه إنما قيل له الصاحب؛ لأنه صحب مؤيد الدولة ابن بويه منذ الصبا وسماه الصاحب، فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به.

وقد كان الصاحب معجباً بفنه تيّاهاً به، واستغل فيه هذا الجانب خصمه أبو حيان التوحيدي، فثلبه أقبح ثلب، ومن ثلّبه له ما يقصّه من أنّ رجلاً من أهل الشام " ورد إليه، فكان فيما استخبره عنه: رسائل من تقرأ عندكم؟ فقال: رسائل ابن عبدِ كان، قال: ومن؟ قال: رسائل الصابي، وغمزه أحد جلسائه ليقول رسائل الصاحب، فلم يظن الرجل، ورآه الصاحب، فقال: تغمز حماراً لا يحس". ويظهر أنه كان يسجع في حديثه وكلامه، ويقص الرواة طُرُقاً له في ذلك كثيرة. يقول أبو حيان: " وكان كَلْفُه بالسجع في الكلام والقول، عند الجد والهزل، يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد، قلت لابن المسيبي: أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع؟ قال: يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجة تنحل بموقعها عروة المُلْك، ويضطرب بها حبل الدولة، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل، وكلفة صعبة وتجشم أمور، وركوب أهوال لما كان يخفّ عليه أن يفِرَّج عنها ويخليها، بل يأتي بها ويستعملها، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها "، وكانوا يزعمون أن سجةً اضطرتّه إلى عزل قاضي مدينة قم، فإنّه قال يوماً: أيها القاضي بقم، ثم حاول أن يكمل السجع فأعنته ذلك، فقال: قد عزلناك، فقم. ولعل أول ما يلاحظ في سجع الصاحب، أنه يمتاز بالخفة والعذوبة فهو في لفظه أكثر صفاء، وأكثر تنغيماً من معاصريه من كتاب الدواوين. وقرأ هذه الرسالة القصيرة، التي كتب بها إلى أحد القضاة، وقد وفد عليه في الري:

"تحدثت الركاب بسير أروى... إلى بلدٍ حططتُ به خيامي

فكدت أطيّر من شوقٍ إليها... بقادمةٍ كقادمة الحمام

أفحق ما قيل من أمر القادم؟ أم ظنّ كأمنيّ الحالم؟ لا والله! بل هو درك العيان، وإنه ونيل المنى سيّان، فمرحباً أيها القاضي براحتك ورحلتك، بل أهلاً بك وبكافة أهلك، ويا سرعة ما فاح نسيم مسراك، ووجدنا ريح يوسف من رياك، فحث المطي تزل غلتي بروياك، وتزح علتي بلقياك، ونص على يوم الوصول نجعله عيداً مشرفاً، ونتخذّه موسماً ومعرفاً، ورد الغلام، أسرع من رجع الكلام، فقد أمرته أن يطير على جناح نسر، وأن يترك الصبا في عقال وأسر:

سقى الله داراتٍ مررت بأرضها... فأدنتك نحوي يا زياد بن عامر

أصائل قربٍ أرتجي أن أنالها... بلقياك قد زحزن كلَّ الهواجرِ ."

أرأيت إلى هذه الرسالة القصيرة، وما فيها من عذوبة اللفظ، وجمال النغم؟ إن صاحب حقًا أستاذ ماهر من أساتذة فن التصنيع في القرن الرابع، وإنه ليتخذ في هذا الفن جميع المفاتيح الموسيقية التي عثر عليها ابن العميد، فهو:

● يُعنى بِقِصَرِ سجعته، فإن طالت عادل بين ألفاظها معادلات تخرج بها من شذوذ الطول إلى ما يشبه القصر.

● ثم هو يُعنى بألوان البديع يحلّي بها جيّد أساليبه، وقد كان يعنى عناية خاصة بلوني التصوير والجناس، ولعل ميله إلى الجناس هو الذي جعله يكثر في رقع رسائله من الجناس الناقص، أما ميله إلى التصوير، فقد جعله يبرع في أوصاف الطبيعة، حتى لتتحول جوانب من رسائله إلى ما يشبه الشعر المنظوم كقوله في رسالة له: " كتابي هذا، وقد أرخى الليل سدوله، وسحب الظالم ذيوله"، وقوله في أخرى يصف مجلس أنس: " قد قابلتني شقائق كالزئوج تجارحت فساتل دماؤها، وضعفت فبقي ذماؤها، وسامتني أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها، وكستها أبرادها، وحضرتني نارنجات ككرات من سفن ذهب، أو ثديّ أبكارٍ خلقت"، وهذا جانب واضح في تصنيعه، وقد استطاع به أن يطرف قراءه، وسامعيه بضربٍ من الشعر المنثور الذي تمتلئ سجعته بالرشاقة، والخفة.

وقد كان بهذا التصنيع، وما يندمج فيه من وشي السجع، والترصيع يأخذ مكانته في عصره، وهي مكانة جعلت أصحاب الإمارات الفارسية يحسدون أصحاب الري، والجبل من البويهيين عليه، ويتمنون أن لو صار إليهم، والحق أن صاحب بن عباد كان أحد أساتذة البلاغة في عصره، وبلغ بمذهب التصنيع مبلغًا عظيمًا من الزخرف، والتميق، وما يتصل بذلك من الزركشة، والتطريز.

أبو حيان التوحيدي

علي بن محمد بن العباس

٣١٠-٤١٤هـ

هو أبو حيان علي بن محمد العباس التوحيدي. ولد في بغداد نحو سنة (٣١٠هـ) ، في أسرة فقيرة ، وكان أبوه يبيع التوحيد ، وهو نوع من التمر ، فعُرف به. وكفله عمه - بعد وفاة أبويه وشيكاً ، ولكنه كان عليه قاسياً ، وإليه مسيئاً ، وله مبغضاً ، فحصل له نكد الدنيا في سن مبكرة ، وكانت فاتحة الشقاء ، ولم تكن خاتمة.

تلقى أبو حيان النحو على أبي سعيد السيرافي (ت ٢٦٧هـ) ، كما أخذ عنه أسرار التصوف ، وأخذ عن علي بن عيسى الرّماني (ت ٣٨٤هـ). كما تلقى الفقه الشافعي على أبي حامد المروروذّي (ت ٣٦٢هـ) - وكان أبو حيان كثير الملازمة له - وعلى عالم عصره محمد بن علي القفال الشاشي (ت ٣٦٥هـ). ودرس المنطق والفلسفة على يحيى بن عدي (ت ٣٦٤هـ) وأبي سليمان المنطقي السجستاني، وغيرهم.

وقد كان التوحيدي قصد إلى الصاحب وإلى ابن العميد في الري منتجعاً فلم يزد الأول على أن كلفه بنسخ الكتب (الوراقة) ، ولم يحظ من الآخر بطائل. وكان جزاؤهما منه أن أَلّف كتابه (أخلاق الوزيرين) أو ما يُعرف بمثالب الوزيرين ، وهو مطبوع.

وفي سنة (٣٧٦هـ) تعرف على أبي الوفاء البوزجاني ، فوصله بوزير صمصام الدولة المعروف بابن العارض ؛ وكان رجلاً كريماً. فنال لديه حظوة ومكانة وتحسنت حاله. وقد جرت له مع الوزير مسامرات جمع منها كتابه (الإمتاع والمؤانسة) وأهداه إلى أبي الوفاء ، وتوفي سنة (٤١٤هـ).

عاش أبو حيان حياة بؤس وشقاء ، وفقر شديد. وكان يطمح إلى حياة الرغد والسعة ، ويعمل جاهداً لكي يصل إلى ذلك فتخيب مساعيه ، ويكون من ذلك حقد أبي حيان ، وغيظه.

وكانت نفس أبي حيان عنده عزيمة ، رفيعة المنزلة ، كما اقترن هذا باحتقار من يراهم دونه من كبار القوم أو صغارهم. و (مثالب الوزيرين) نموذج لذلك.

ومن نثره قوله :

والعمود الذي عليه المعول، والغاية التي إليها المائل، في خصال ثلاث هن دعائم العالم، وأركان الحياة، وأمهات الفضائل، وأصول مصالح الخلق في المعاش والمعاد، وهن: الدين، والخلق، والعلم؛ بهن يعتدل الحال، وينتهي الكمال، وبهن تملك الأزيمة، وينال أعز ما تسمو إليه الهمة؛ وبهن تؤمن الغوائل وتحمد العواقب؛ لأن الدين جماع المرشد، والمصالح، والخلق نظام الخيرات والمنافع، والعلم رباط الجميع؛ ولأن الدين بالعلم يصح، والخلق بالعلم يظهر والعلم بالعمل يكمل، فمن سلم دينه من الشك واللحاء، وسوء الظن والمرء وثبت على قاعدة التصديق بمواد اليقين الذي أقر به البرهان، وطهر خلقه من دنس الملل، ولجاج الطمع، وهجنة البخل، وكان له من البشر نصيب، ومن الطلاقة حظ، ومن المساهلة موضع، وحظي بالعلم الذي هو حياة الميت، وحلي الحي، وكمال الإنسان فقد برز بكل فضل، وبان بكل شرف ، وخلا عن كل غباوة، وبرئ من كل معابة، وبلغ النجد الأشرف، وصار إلى الغاية القصوى.

(القاضي الفاضل)

ويُمثَّل : " مدرسة التصنُّع "

هو عبد الرحيم البيساني، ولد في عسقلان، فهو عسقلاني الأصل كابن الشخباء؛ وولي أبوه قضاء بيسان من قبل الفاطميين، فنسب هو إليها، ولما شب أرسل إلى ديوان الإنشاء في القاهرة ليتخرج فيه، فحضر إلى مصر في عهد الحافظ " ٥٢٤-٥٤٤هـ"، وتلمذ على أشهر الكتاب، وكان

الموفق ابن الخلال حينئذ رئيس ديوان الإنشاء، وكان معه ابن قادوس الأديب المشهور، فلزمهما، ويقول الرواة: إنه لما مثل بين يدي موفق سأله: ماذا أعددت لفن الكتابة؟ فأجابه: إنني أحفظ القرآن الكريم وديوان الحماسة، فأمره أن يحمل شعر الحماسة كله، ثم ما زال به يدر به على الكتابة حتى نبغ فيها، ولكنه لم يستمر مع موفق، بل ذهب إلى قاضي الإسكندرية المسمى بابن حديد، فكتب عنه كتبًا حبرها تحبيرًا ممتازًا، ويقال إن الوزير: العادل ابن رزيك "٥٥٦-٥٥٨هـ" اطلع على بعضها: فأعجب بها، وطلبه ليسلكه في كتاب ديوانه، فعاد إلى القاهرة، ومكث في ديوان الإنشاء حتى وفد أسد الدين شيركوه، فقربه منه واتخذ كاتبه، ولما توفي استخدمه صلاح الدين. ويظهر أنه أخلص لهذه الأسرة منذ قدمها، فإننا نجد صلاح الدين يتخذ وزيره، ومشيره كما يتخذ كاتبه، وروي عنه أنه قال: " والله ما ملكت البلاد بسيفكم ولا برماحكم، ولكن بقلم القاضي الفاضل "، ويقول ابن فضل الله العمري: " كان القاضي الفاضل هو الدولة الصلاحية كان كاتبها ووزيرها، وصاحبها ومشيرها، والحاكم في كلها، والمجهز لبعوثها، ومع هذا كله كان لا يزال منكدمًا مبتلى بضنا قلبه وجسمه، ومرض همه وسقمه... ولهذا كان لا يتكلف مع السلطان سفرًا في كل مرة، وكان العماد ينوب عنه "، وذكر القاضي نفسه علقته في أحد خطباته فقال: " والمملوك في حال تسطير هذه الخدمة جامع بين مرضي قلبٍ وجسد، ووجع أطرافٍ وعليل كبد "، وكما كان القاضي عليلا كان - على ما يظهر - تَرَوَّرَ عنه العين. وتختلف الروايات في الخليفة، الذي جاء القاضي الفاضل في عصره إلى مصر هل هو الحافظ أو هو ابنه الظافر، ورجحنا الأولى؛ لأنها هي التي تتلاءم مع تاريخ القاضي الفاضل، قال الأسعد: "كان القاضي الفاضل دميم الخلق، وكان له حذبة ظاهرة خلف ظهره وكان يسترها بالطيلسان، حتى لا تظهر للناس". وهذا الرجل العليل القبيح بلغ من فن الكتابة، وتجويده ما لم يبلغه أحد في عصره. يقول العماد الأصبهاني في حقه: " رَبُّ القلم والبيان، واللسن واللسان، والقريحة الوقادة والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرزة، والفضل الذي ما سمع في الأوائل، ممن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره، أو جرى في مضماره، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع، ورسخت بها الصنائع، اخترع الأفكار، ويطلع الأنوار، ويبعد الأزهار".

ويقول النويري: "إلى القاضي الفاضل انتهت صناعة الإنشاء ووقفت، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت، من بحر علمه رويت ذوو الفضائل واعترفت، وأمام فضله ألفت البلاغة عصاها، وبين يديه استقرت به نواها، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره، ورافع علم البيان لا محالة، والفاضل بغير إطالة"، وقد أشاد به وبفنه كل من تعرضوا لترجمته، كما أشار كثير منهم -وعلى رأسهم العماد الأصبهاني- إلى أنه صاحب طريقة، ولكن ينبغي أن لا نظن من ذلك أن القاضي الفاضل ابتكر مذهباً جديداً، في تاريخ النثر العربي، إنما كل ما هناك أنه قلد أصحاب التصنع فأحسن التقليد، ومن المهم أن نعرف أن الكتاب في الأقاليم المختلفة، منذ القرن السادس أخذوا يغمرون بذوق التصنع في الكثير الأكثر، وقلما تركوا هذا الذوق إلى ذوق التصنيع، وبدأت هذه المرحلة في مصر لا بالقاضي الفاضل، ولكن بابن الشخباء في العصر الفاطمي، والقاضي الفاضل نفسه حين كان يكتب في العصر الفاطمي، كان يكتب بهذا الذوق، وانظر إليه يستهل رسالة كتب بها عن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين: " كتابنا - أطال الله بقاء المليك - عن مودة ظاهرة الأسباب، متظاهرة الأنساب، ضافية جلباب الشباب، وعوائد عوراف لا ينتكر معروفها، ووفود فوائد لا يتصدع تأليفها، ومساعي مساعد لا ينقض معروفها، ولا ينقض مسوفها، وسعادة بالخلافة التي عذق به أمرها، وأوضح سرها، وملاً سرائرها وسريرها، وأطلع شمسها وقمرها".

وهذه الصورة من التعبير، وما يطوى فيها من تشخيص وجناس، وإمعان في هذا الجناس هي الصورة العامة لكتابة القاضي الفاضل؛ ومن يرجع إلى بقية هذه الرسالة في صبح الأعشى، يجد فيها ما اشتهر به من اقتباسه لأي ذكر الحكيم، كما يجد اهتمامه البالغ بالنتظير، بحيث لا نغلو إذا قلنا: إن فن القاضي الفاضل استوى له نهائياً في العصر الفاطمي، ونحن نعرض على القارئ قطعاً من رسالة تعتبر أشهر ما دبجه - وهي رسالته عن صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد، يزف إليه البشرى بفتح بيت المقدس - حتى يطلع على خصائصه الأدبية في أروع أثر أدبي عني به ويتدبجه، وهو يستهلها على هذا النمط:

" أدام الله الديوان العزيز النبوي الناصري، ولا زال مظافر الحد بكل جاحد، غني التوفيق عن رأي

كل رائد، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد، مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقد، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد، متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد، ماضي حكم القوم بعزم لا يمضي إلا بنسل غوي وريش راشد، ولا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواع إلى المربع، وأنوارًا إلى المساجد، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيالًا إلى المراقب، وخيالا إلى المراقد ."

وأنت ترى القاضي الفاضل في هذه القطعة الصغيرة عني - كما عني في مستهل الرسالة العاضدية - بألوان البديع وخاصة لون الجناس، وذهب يطيل في عباراته، حتى يحقق ما يريد من جناس وتنظير وتشخيص، وما من شك في أننا نحس في كل ذلك ذوق أصحاب التصنع، إذ نراه يحاول أن يمرن أسلوبه على أن يحمل أوسع ما يمكن، من جناسات منقوصة، وغير منقوصة، واستمر في الرسالة، فستراه يقول عن صلاح الدين، وفتحته لبيت المقدس إنه: "فاز من بيت المقدس بذكر لا يزال الليل به سميرًا، والنهار به بصيرًا والشرق يهتدي بأنواره، بل إن أبدى نورًا من ذاته هتف به الغرب بأن واره؛ فإنه نور لا تكنه أغساق السدف، وذكر لا تواريه أوراق الصحف، وكتاب الخادم هذا، وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شفقاءً، وطارت فرقه فرقًا.... وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة، ونام جفن سيفه، وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون، وأضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث، والرب المعبود الواحد، وكان عندهم الثالث، فبيوت الشرك مهدومة، ونيوب الفكر مهتومة، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وبدل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أصحاب المشأمة إلى أصحاب الميمنة".

وواضح أن سمات القاضي الفاضل، التي رأيناها منذ مطلع الرسالة لا تزال هي نفسها، فهو يعمم في جميع جوانبها ميله الشديد إلى التشخيص، كما يعمم ميله إلى ألوان البديع وخاصة لون الجناس، وكان ما يزال يستخدمه في جميع أشكاله من تامة وغير تامة، واستهدفت في أثناء ذلك؛ لأن يوري بين كلمة "بأنواره" وكلمة "بأن واره"، وقاده استهدافه لهذا النوع من الجناس إلى أن يستخدم

التورية كثيرًا في نثره، وقد نسب القدماء إليه استخدامه هذا اللون لأول مرة في تاريخ أدب مصر الإسلامية، ولكن من يقرأ شعر الشريف العقيلي في المغرب، والخريدة، يجد أن هذا اللون عرف في مصر منذ أوائل القرن الخامس، وكل ما يمكن أن يضاف إلى القاضي الفاضل، أنه ربما كان من أوائل من نقلوه من الشعر إلى النثر، ومهما يكن فقد كان القاضي الفاضل، يعنى بأن تضم كتبه عناصر مذهب التصنع، وخاصة عنصر الجناس والتشخيص، وتضمن الشعر ثم عنصر الاقتباس من آي القرآن الكريم، على نحو ما نجد في القطعة السابقة، إذ نظم في عبارته قوله تعالى: **{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ}**، وكذلك قال: "وبدل الله مكان السيئة الحسنة" وقال: "ن أصحاب المشأمة إلى أصحاب الميمنة"، وفي هاتين العبارتين ألفاظ من القرآن الكريم. ومع ذلك فعناصره الفنية التي يستخدمها لم نتيبها كلها حتى الآن، فهناك عنصر مهم كان يستخدمه في كتابته، وهو عنصر التصنع لمصطلحات العلوم، واستمر في الرسالة الأنفة فستره يقول:

"كان يبذل المذابح منائر والكنائس مساجد، ويبوئ بعد أهل الصلبان أهل القرآن للذب عن دين الله مقاعد، ويقر عينه ويعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عساكره بجارٍّ ومجرور، وأن ظفر بكل سور، ما كان يخاف زلزاله وزياله إلى يوم النفخ في الصور". ولا شك أن القارئ قد لاحظ ما نريد أن نشير إليه، وهو أن القاضي الفاضل تصنع هنا لذكر الجار والمجرور، وراعى النظر، فذكر كلمة "تعلق" وكل ذلك ليستتم ما يدل به على براعته في فنه.

ومهما يكن فإن القاضي الفاضل، كان أبلغ كتاب العصر الأيوبي، وقد ظلت المصطلحات، التي يستخدمها في فنه أساسية عند جميع الكتاب المصريين من بعده، حتى ليقول النويري: "إن كل فاضل بعد الفاضل فضلة"، ولم يكن هذا إحساس النويري وحده، بل كان إحساس جميع الكتاب بعده، فقد اتخذوا آثاره مثلهم الأعلى الذي يحذونه ويقلدونه، ومن أجل ذلك كنا لا نخطئ إذا قلنا: إن العصور التي تلتها في مصر، كان أصحابها يصوغون دائمًا على مثاله، وينسجون غالبًا على منواله.

فن المقامات

المَقَامَات فن قصصي في الأدب العربي أنشأه بديع الزمان الهمذاني في القرن الرابع الهجري. والمقامة لغةً تعني المجلس، ثم تطوّرت دلالتها لاحقاً فأصبحت تعني الحديث الذي يُلقى على الناس، إما بغرض النصح والإرشاد وإمّا بغرض الثقافة العامة أو التّسوّل. ثم اكتسبت أخيراً دلالتها الاصطلاحية المعروفة.

والمقامة الفنية أو البديعية، كما أجمع النقاد على تعريفها، أقرب ما تكون لقصة قصيرة مسجوعة بطلها نموذج إنساني مُكد ومتسوّل. وللمقامة راوٍ وبطل، وهي تقوم على حدث طريف، مغزاه مفارقة أدبية أو مسألة دينية أو مغامرة مضحكة تحمل في داخلها لوناً من ألوان النقد أو الثورة أو السخرية، وضعت في إطار من الصنعة اللفظية والبلاغية.

وعلى الرغم من أن نشأة المقامة مرتبطة ببديع الزمان، إلا أن ريادته لهذا الفن القصصي مازالت موضع خلاف بين الدّارسين. ففريق منهم يذهب إلى أن بديع الزمان لم يبتكر هذا الفن وإنما سبقه إليه كُتّاب آخرون مثل ابن دريد، وابن فارس، والجاحظ وغيرهم. أما الفريق الآخر فيعتقد أن بديع الزمان هو المبتكر الحقيقي لهذا الفن وأنه لم يُسبق إليه. وربما كان الرأي الأقرب إلى الصواب هو أن بديع الزمان قد استعان بكثير من أشكال الكتابات القصصية التي سبقته وتأثر بمضامينها ليُخرج فن المقامة في شكله النهائي الذي لم يطرأ عليه أي تغيير يُذكر إلى يومنا هذا.

ظلت مقامات بديع الزمان الهمذاني الاثنان والخمسون أنموذجاً يحتذيه كُتّاب المقامات الذين جاءوا من بعده. وأول هؤلاء وأشهرهم الحريري الذي كتب مقاماته المشهورة واعترف بزيادة بديع الزمان لهذا الفن. انظر: الحريري. ثم تبعه عدد كبير من الكُتّاب القدامى والمُحدثين فكتبوا في هذا الفن، من أبرزهم الزمخشري وجلال الدين السيوطي من المشاركة، والسرقسطي من الأندلسيين. وأما المُحدثون فأهمهم اليازجي والمويلحي.

يقوم الإطار الفني للمقامة على شخصيتين رئيسيتين مختلفتين هما: شخصية الراوي وشخصية البطل. فالراوي. الذي ينتمي إلى طبقة اجتماعية متوسطة هو الذي يمهد. غالباً. لظهور البطل، يتابعه حيثما حل، وهو في كل هذا يُحسن طريقة تقديم البطل الذي يكون عادة شخصية

ساخرة فصيحة ذكية بليغة تنتمي إلى طبقة اجتماعية متدنية، ولديه قدرة عجيبة على التتكر، فهو يجيد لبس الأقنعة، فتارةً نراه ناسكًا واعظًا وأخرى نديم كأس، ومرةً ثالثة فقيهاً وهكذا. وهو في كل هذه الأحوال يعتمد على الفصاحة والذكاء والحيلة والخداع لنيل هدفه ممن يندعون بمظهره.

وبالرغم من أن التّسوّل من أهم موضوعات المقامة، إلا أنها ليست الموضوع الرئيسي لها، وإن كانت صنعة ملازمة للبطل؛ فقد عالجت المقامة موضوعات شتى مثل النقد بأنواعه المختلفة : الأدبي والمذهبي والاجتماعي، وفيها التعليم اللغوي والأسلوبي، والوعظ والإرشاد، والحيلة والأدب والألغاز.

تعتمد المقامة في أسلوبها على قالب السجع، وعلى الإكثار من استخدام المحسنات البيديعية واللفظية بأنواعها المختلفة، وعلى توظيف الغريب كما هو الحال في مقامات الحريري بصفة خاصة.

وحاول بعض الباحثين أن يربطوا بين المقامة وبعض الأجناس الأدبية الحديثة مثل القصة القصيرة والرواية والمسرحية، إلا أن المقامة وإن شابهت هذه الأجناس في بعض خصائصها، فستظل هذه المشابهة سطحية. فالمقامة ليست أياً من هذه الأجناس الثلاثة، إنها جنس قصصي عربي قائم بذاته.

ولفن المقامة أهمية خاصة في مجال الأدب المقارن، فقد قلّدها بعض الكتاب الفُرس، كما يُعتقد أنها أسهمت في ظهور رواية المُكْدِين التي ظهرت في أسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي، ثم شاعت في أوروبا لتصبح مقدمة لظهور الرواية النثرية بمفهومها الحديث، نظرًا للتشابه الكبير بين البيكارو بطل رواية المكدين الأسبانية وبين أبي الفتح الإسكندري وأبي زيد السروجي، بطلي مقامات بديع الزمان والحريري.

ومن أهم أعلام فن المقامات في العصر العباسي الثاني بديع الزمان الهمداني وهو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى الذي سكن هراة من بلاد خراسان وتُوفي بها في سنة ٣٩٨هـ = ١٠٠٨م وكان ذلك في خلافة القادر بالله.

وقد كتب بديع الزمان مقاماته الذائعة الصيت وأبدع فيها، وهو أول من استوى على يده هذا الفن في اللغة العربية. وقد حذا حذوه ووصل بهذا الفن إلى مداه أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري الذي اعترف في صدر مقاماته بأنه جعل مقامات البديع مثلاً له. وقد توفي الحريري في حدود سنة ٥١٦هـ = ١١٢٢م بالبصرة إبان فترة نفوذ السلاجقة، وذلك في خلافة المسترشد بالله.

والملاحظ أن شهرة مقامات الحريري بلغت من الانتشار حدًا تتضاءل بجانبه شهرة مقامات الرائد الأول بديع الزمان. وتكشف مقامات الحريري عن البراعة الكبيرة لصاحبها في التصرف في اللغة وتطويعها لما يريد من معانٍ وأفكار، وهي إحدى الوسائل المهمة لمن يبحثون عن إثراء ملكاتهم اللغوية.

ومن النماذج المشهورة في فن المقامات المقامة البغدادية لبديع الزمان الهمداني:

المقامة البغدادية لبديع الزمان الهمداني

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: اسْتَهَيْتُ الْأَرَادَ، وَأَنَا بَبَغْدَادَ، وَلَيْسَ مَعِيَ عَقْدٌ عَلَى نَفْدٍ، فَخَرَجْتُ أَنْتَهْرُ مَحَالَهُ حَتَّى أَلْحَنِي الْكَرْخَ، فَإِذَا أَنَا بِسَوَادِيٍّ يَسُوقُ بِالْجَهْدِ حِمَارَهُ، وَيَطْرَفُ بِالْعَقْدِ إِزَارَهُ، فَقُلْتُ: ظَفَرْنَا وَاللَّهِ بِصَيْدٍ، وَحَيَّاكَ اللَّهُ أَبَا زَيْدٍ، مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ وَأَيْنَ نَزَلْتَ؟ وَمَتَى وَافَيْتَ؟ وَهَلُمَّ إِلَى الْبَيْتِ، فَقَالَ السَّوَادِيُّ: لَسْتُ بِأَبِي زَيْدٍ، وَلَكِنِّي أَبُو عُبَيْدٍ، فَقُلْتُ: نَعَمْ، لَعَنَ اللَّهُ الشَّيْطَانَ، وَأَبْعَدَ النَّسِيَانَ، أَنْسَانِيكَ طُولَ الْعَهْدِ، وَاتَّصَالَ الْبُعْدِ، فَكَيْفَ حَالُ أَبِيكَ؟ أَشَابَ كَعَهْدِي، أَمْ شَابَ بَعْدِي؟ فَقَالَ: قَدْ نَبَتَ الرَّبِيعُ عَلَى دِمْنَتِهِ، وَأَرْجُو أَنْ يُصَيِّرَهُ اللَّهُ إِلَى جَنَّتِهِ، فَقُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَمَدَدْتُ يَدَ الْبِدَارِ، إِلَى الصِّدَارِ، أُرِيدُ تَمْزِيقَهُ، فَقَبِضَ السَّوَادِيُّ عَلَى

خَصْرِي بِجَمْعِهِ، وَقَالَ: نَشَدْتُكَ اللهُ لَا مَرْفَئَهُ، فَقُلْتُ: هَلُمَّ إِلَى الْبَيْتِ نُصِبْ غَدَاءً، أَوْ إِلَى السُّوقِ نَشْتَرِ شِوَاءً، وَالسُّوقُ أَقْرَبُ، وَطَعَامُهُ أَطْيَبُ، فَاسْتَقَرَّتْهُ حُمَةُ الْقَرَمِ، وَعَطَفْتُهُ عَاطِفَةُ اللَّقْمِ، وَطَمِعَ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ وَقَعَ، ثُمَّ أَتَيْنَا شِوَاءً يَتَقَاطَرُ شِوَاؤُهُ عَرَقًا، وَتَتَسَايَلُ جُودَابَاتُهُ مَرَقًا، فَقُلْتُ: افِرْزْ لِأَبِي زَيْدٍ مِنْ هَذَا الشِّوَاءِ، ثُمَّ زِنْ لَهُ مِنْ تِلْكَ الْحَلْوَاءِ، وَاخْتَرْ لَهُ مِنْ تِلْكَ الْأَطْبَاقِ، وَانْضِدْ عَلَيْهَا أَوْرَاقَ الرِّقَاقِ، وَرَشَّ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ مَاءِ السَّمَّاقِ، لِيَأْكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنِيئًا، فَأَنْحَى الشِّوَاءَ بِسَاطُورِهِ، عَلَى زُبْدَةِ تَتُّورِهِ، فَجَعَلَهَا كَالْكَحْلِ سَحَقًا، وَكَالطَّحْنِ دَقًّا، ثُمَّ جَلَسَ وَجَلَسْتُ، وَلَا يَيْسَ وَلَا يَيْسْتُ، حَتَّى اسْتَوْفَيْنَا، وَقُلْتُ لِصَاحِبِ الْحَلْوَى: زِنْ لِأَبِي زَيْدٍ مِنَ اللُّوزِ بِنَجِ رِطْلَيْنِ فَهَوَّ أَجْرِي فِي الْحُلُوقِ، وَأَمَضَى فِي الْعُرُوقِ، وَليَكُنْ لِيْلِي الْعُمَرِ، يَوْمِي النَّشْرِ، رَقِيقَ الْقَشْرِ، كَثِيفَ الْحَشْوِ، لَوْلِيَّي الدُّهْنِ، كَوَكْبِي اللَّوْنِ، يَذُوبُ كَالصَّمْغِ، قَبْلَ الْمَضْغِ، لِيَأْكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنِيئًا، قَالَ: فَوَزَنَهُ ثُمَّ قَعَدَ وَقَعَدْتُ، وَجَرَدَ وَجَرَدْتُ، حَتَّى اسْتَوْفَيْنَاهُ، ثُمَّ قُلْتُ: يَا أَبَا زَيْدٍ مَا أَحْوجَنَا إِلَى مَاءٍ يُشْعَشِعُ بِالنَّجِّ، لِيَقْمَعَ هَذِهِ الصَّارَةَ، وَيَقْنَأَ هَذِهِ اللَّقْمَ الْحَارَةَ، اجْلِسْ يَا أَبَا زَيْدٍ حَتَّى نَأْتِيكَ بِسَقَاءٍ، يَا تَيْبِكَ بِشْرِبَةِ مَاءٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ وَجَلَسْتُ بِحَيْثُ أَرَاهُ وَلَا يَرَانِي أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ، فَلَمَّا أَبْطَأْتُ عَلَيْهِ قَامَ السَّوَادِيُّ إِلَى حِمَارِهِ، فَاعْتَلَقَ الشِّوَاءَ بِإِزَارِهِ، وَقَالَ: أَيْنَ تَمُنُّ مَا أَكَلْتُ؟ فَقَالَ: أَبُو زَيْدٍ: أَكَلْتُهُ ضَيْفًا، فَلَكَمَهُ لَكَمَةً، وَتَنَّى عَلَيْهِ بِلَطْمَةٍ، ثُمَّ قَالَ الشِّوَاءُ: هَاكَ، وَمَتَى دَعَوْنَاكَ؟ زِنْ يَا أَخَا الْقِحَةِ عِشْرِينَ، فَجَعَلَ السَّوَادِيُّ يَبْكِي وَيَحُلُّ عَقْدَهُ بِأَسْنَانِهِ وَيَقُولُ: كَمْ قُلْتُ لِدَاكَ الْفُرَيْدِ، أَنَا أَبُو عُبَيْدٍ، وَهُوَ يَقُولُ: أَنْتَ أَبُو زَيْدٍ، فَأَنْشَدْتُ :

اعْمَلْ لِرِزْقِكَ كُلَّ آلِهِ *** لَا تَفْقُدَنَّ بِكُلِّ حَالَةٍ
وَأَنْهَضْ بِكُلِّ عَظِيمَةٍ *** فَالْمَرْءُ يَعْجُزُ لَا مَحَالَةَ

معاني المفردات:

(١) الأزاد : من أجود أنواع التمر ، (٢) النقد: ما صُكَّ من الذهب والفضة ، (٣) المحال: جمع محل ، أمكنة بيع الأزاد، (٤) الكرخ : في الجانب الغربي من بغداد ، (٥) السوادى: نسبة إلى السواد في العراق حيث تكتسي الأرض بالخضرة الداكنة التي تبدو من بعيد سوداء اللون ، (٦) الإزار : ما يشدُّ في الوسط ، (٧) الصيد : هذا السَّوَادِيُّ المغفل ، (٨) كعهدي: أي معرفتي به ، أي

هل هو باق في شبيته كما أعرفه أم أصبح شيخاً،(٩) الدمنة : الأثر ، والمقصود هنا القبر ، وقيل المقصود أنه مات من زمن بعيد يكفي لأن تخرب داره وبنبت الربيع على آثارها ،(١٠) البدار : أي المبادرة ، المقصود وسارعت،(١١) الصادر : قميص صغير يلي الجسد ، أو هو ثوب يُسبَلُ حتى يغطي الصدر بتمامه ، والمقصود أنه يريد التمزيق جزءاً على والده.

تحليل المقامة

تمثل المقامة البغدادية نمطاً من أنماط السلوك الشائعة في المجتمع العباسي في ذلك القرن (الرابع الهجري) ، وتميز بين شر يكتن اجتماعيتين تتمثلان في طبقة المكدين الذين يلتمسون الرزق بأيسر السبل عن طريق الحيلة واستغلال الآخرين ، وطبقة أهل السواد الذين يعيشون على الفطرة، والحقيقة أن النمط السلوكي هو المستهدف في هذا النص وليس نسق التركيب الاجتماعي ، فهي تفح عما آل إليه الأمر بتلك الطبقة من المتأدبين الذين استغلو مهاراتهم اللغوية وملكاتهم العقلية في الإيقاع بالناس واستغفالههم ، ولكن الجانب الاجتماعي الانتقادي لم يغب عن بال البديع وهو ينشيء هذا النص ، أما السخرية التي يمكن أن تكون هدفاً من أهداف الكاتب بقصد الترويح عن القارئ والتخفيف من أعبائه فإنها ليست بمعزل عن روح العصر الذي أتقلته الأدواء الاجتماعية والخلفية ، ولا أظن أن الهدف التعليمي اللغوي كان وارداً إلا بمقدار.

وقد بدت براعة الكاتب واضحة في المنهج البديعي الذي اختطه حيث الأسجاع الخفيفة التي تأتي كما يبدو للوهلة الأولى عفو خاطر غير متكلفة فتتناسب انسياباً تلقائياً رشيقياً خالياً من التعسف والتوعر ، وقد تبدي هذا الانسياب في التدايعات المتتالية، ومما يؤكد ذلك أن الكاتب لا يحاول أن يلتزم السجع المطول ، بل كثيراً ما يستجيب لدواعي المعنى فينعتق مناسار السجع لينطلق مترسلاً ولو إلى حين وإن كان هذا قليلاً ولكنه ذو دلالة ،فهو يقول مثلاً (فخرجت أنتهز محاله حتى أحنني الكرخ) متحلاً من التزام السجع حين كان ذلك ضرورياً ، وأهم ما يميز هذه المقامة خلوها إلى حد كبير من الألفاظ الغريبة والحوشية واستجابتها لدواعي الحدث وطبيعته ، ولهذا نشهد نزوعاً قصصياً واضحاً في هذا النص يتمثل في:

أولاً - حيوية المشهد الذي يضج بالحوار ،فقد ور لنا السوادي وهو يسوق حماره ويعقد صرة نقوده ، فإذا بنا أمام صورة حية لقروي يهبط إلى المدينة وهو في غفلة عما يخبئه له القدر .

ثانياً- دينامية الحوار وحركيته ومناسبته لتكوين الشخصية العقلي والنفسي ، وتوظيفه بشكل جيد للكشف عن أعماق الشخصيتين الرئيسيتين في المقامة ، وقد تمثل ذلك في استرسال الراوي عيسى بن هشام والتفافة السريع على الموقف وتغييره لصالحه ، وقصر المقطع الحوارى الذي يرد على لسان السوادى وسذاجة منطقته.

ثالثاً- براعة البديع فى رسم شخصياته من خلال الحركة فهو قد يلجأ إلى التمثيل والتصوير لا إلى التقرير والإخبار وهذا ما يقربه إلى حد كبير من منهج الكتابة القصصية.

رابعاً- الحكمة القائمة على المفاجأة وعنصر التشويق ، وهى حكمة بسيطة أقرب إلى منهج القصة الشعبى فهى قائمة على التسلسل الخيوطى المنتظم ، وعلى طرفة الموقف.

خامساً- أما فيما يختص بالزمان والمكان ، فلم يغفل الكاتب ذكر الوعاء الاجتماعى والبيئى ، فأحداث القصة قد وقعت فى بغداد ، وهوية الانتماء بارزة ، فالسوادى ينتمى إلى سواد العراق ، وهى بيئة اجتماعية لها خصائصها النفسية والسلوكية ، ولم يغفل الكاتب البعد النفسى فيها.

سادساً- وحدة الأثر التى هى شرط للقصة القصيرة تفضى بها نهاية القصة التى جاءت كبؤرة مضيئة كشفت عن عناصر الموقف برمته ، وإن سبقتها مقدمات أرهصت بها.

خصائص مقامات البديع:

أولاً- الخصائص المتعلقة بالمضمون:

تناولت مقامات البديع موضوعات متعددة تعالج واقع العصر وترسم صورة لجوانب متعددة منه ، يرى العديد من الباحثين أنها تعبر عن موقف البديع فى عصره ، وهى موقف الناقد المتمرد على قيم ذلك العصر السالبة.

ومن أبرز هذه الموضوعات الكدية ، وهى صفة ملازمة لبطل المقامات ، وهذه الصفة تجمع بين الاحتيال والتسؤل ، ويهدف من ورائها البديع إلى تصوير الدوافع التى حدثت بكثير من العلماء إلى ممارسة هذا السلوك بأشكال مختلفة ، من خلال البراعة الأسلوبية أو الحيلة بأنواعها المختلفة كالطروق ليلاً حيث يلجأ أبو الفتح الاسكندرى بطل مقامات البديع إلى النزول فى الليل لأنه يعلم أن ضيف الليل معزز مكرم عند العرب أو التظاهر بالعمى ، ويتضح ذلك فى مقامة البديع المسماة

ب (المكفوفية) أو امتهان (الفرادة) التي يمتنها من يرقص القرد ويضحك الناس به كما في المقامة القردية ، أو التظاهر بكثرة العيال وسوء الحال كما في المقلمة (الجرجانية).

ومن الموضوعات الأخرى (غير الكدية) النقد الأدبي ، فقد عالج في المقامة هذا الموضوع ، إذ كان صاحب مدرسة أدبية وهي تتمثل في الانتصار لمذهب الصنعة الذي ساد في القرن الرابع الهجري ، واتضح ذلك من خلال نقده للجاحظ في (المقامة الجاحظية) إذ عاب عليه نفوره من التصنيع وجنوحه إلى الاسترسال والسهولة ، وقد نقد الجاحظ أيضاً في مقامته (المضيرية) ، وعاب عليه طريقته في الاستطراد وعمد إلى النقد التعليمي إذ عمد إلى ذكر الآراء النقدية المتداولة وذلك في مقامته القريضية ، ولم يقتصر في ذلك على الأدب بل نقد أساليب المتكلمين ومعتقداتهم كما فعل في المقامة (المارستانيّة) .

ولعل الجانب التعليمي في مقامات البديع من أبرز الجوانب ، وهو يستخدم أساليب مختلفة كالأسئلة المحيرة والألغاز كما في المقامة العراقية ، واستخدم الألغاز في (المقامة الشعرية).